

سلمى مطر سيف

دار الكلمة للنشر



صمم الغلاف: كريم الحاج

دار الكلمة للنشر
شارع ليون - بناية سلام . الحمراء
بيروت . لبنان
ص . ب ١٣/٥٢٨٨
تلفون : ٨٠٣٧٤٠

الطبعة الأولى ١٩٨٨

ALKALIMA PUBLICATIONS (CYPRUS) Ltd Tel 465858 Telex 5223 CY Rawafid-P O Box 7047 NICOSIA
DAR ALKALIMA (LEBANON) Tel 803740- Telex 20639 LE Della - P O Box 13/5288 BEIRUT

سلمى مطر سيف



قصص قصيرة

الكلمة
دار الكلمة للنشر

DL

إهداء

أراه من البعد البعيد ، مادّاً
أصابعه باللغة التي أفقدتني
قلبي . أنحني بكامل بصيرتي ،
لدستويفسكي .

سلمى

الزهرة ...

انتظر خلفان زملاءه إلى أن خرجوا تباعاً من الفصل وقد سطع غياب الشمس على وجه المعلمة لوناً شمسياً واشتعلت خصلات شعرها القصير جداً بأضواء ظلية لوجوه الدارسين.

ـ ها خلفان تأخرت عن أولادك.

اقترب خلفان وأغمض عينيه بخجل خلط وجهه بحمرة تفاحية وأخرج يده من وراء ظهره..

ـ خذي الزهرة لك ك ك...

كانت زهرة حارة ذابلة فقد هصرها خلفان بخجله، أخذت المعلمة ذبول الزهرة مع جملة أغراضها التعليمية.

خلفان عندما التحق بفصول محو الأمية لم يكن مدفوعاً إلاّ باندفاع زملائه في العمل وجيرانه؛ وشدّه أول مرّة ذهب فيها إلى الفصل فضول متراوح ما بين اللامبالاة وما بين الاستكشاف عندما دفعته زوجته للتعلم أسوة بأزواج الجارات اللواتي أثنين على الخطوة من انفراج أسارير الأزواج بعد رجوعهم من أول درس.

وعندما أقبلت المعلمة تلفّت خلفان إلى زملائه فرأى وجوههم أشبه بوجوه أبنائه عندما تتطاير منها شياطين شقية نزقة. خلفان بالغ في جموده وغيابه لكن سرعان ما انفك ذلك الجمود بالمدرِّسة اللطيفة ذات اللغة الموسيقية المتناغمة مع حركتها النسائية ومع تلاعب أصابعها مع الكلمات والخطوط التي تكتبها على اللوح الأسود.. وقد تحول زملاء خلفان إلى أطفال يشاغبون ويتسابقون إلى اللوح ليكتبوا ويفوزوا باطراء عذب من المعلمة الشابة التي كانت في عمر واحدة من بناتهم.. والمعلمة كانت تبالغ في التلطف معهم وتناديهم بأسماء أبنائهم يا بو عبدالله، يا بو راشد، يا بو محمد، يا بو سعيد.

انتظم خلفان في الدراسة خلال الأيام التالية ونالت إعجابه المعلمة التي كانت تتابع كل واحد منهم وتقف بالقرب من دفاترهم مارة بعصفها الرقيق وخلفان كان يشاهد سحابة زرقاء بيضاء تقطر زهراً حول المعلمة.

خلفان في اليوم الثاني وأثناء وجوده في سيارة المؤسسة التي يعمل بها، فكر أن يستمر مع المعلمة كما راوده شعور عذب بأهمية حمل هدية لطيفة لها تليق بحضورها الجميل... اقتطع زهرة حناء من شجرة الحناء الوحيدة في بيته وقدمها للمعلمة ملفوفة في منديل زوجته المعطر، شكرته المعلمة بانحناءة من رأسها الأشبه بزهرة متفتحة بالندى البارق.

استهوت الدراسة خلفان وكان يؤدي واجباته المدرسية

وهو ساجد بالقرب من زوجته وأبنائه ، ويقوم مترجلاً عن الكرسي حين تطلب منه المعلمة أن يكتب على اللوح الأسود وسط دوامات الوجل من الكتابة التي تعرقل قدميه فيسقط على أم رأسه مرتطماً بالهواء ، وفي أول مرة طلبت منه المعلمة أن يكتب «بحر» ، وفي ظل انشغالها مع أحد الدارسين ، رسم خلفان بحراً وسمكاً وزوارق ونوارس ورسم في النهاية زهرة .

ـ من علمك الرسم يا خلفان . .

ـ لم يعلمني أحد ، أول مرة أكتب بحراً بحراً . .

وهرول خلفان إلى كرسيه متلعثماً بالنشوة .

اعتاد خلفان أن يأخذ الزهرة كل يوم إلى المعلمة ، أحياناً يقطفها من الشارع العام وأحياناً يتعمد الوقوف أمام بيت كبير مسور بحديقة زاهية تلتمع فيها الجهنميات بانبثاقات نارية بعد أن يكون خلفان قد قطع سككاً وطرقات ووجوهاً ليصل البيت العالي . . . يدق الباب «لو سمحتم أريد زهرة . .» .

فيبادر حارس البيت باعطائه ما يريد وهو يخبىء استغراباً . وكم تمنى خلفان لو كان بيته حديقة . . فكر أن يزرع حديقة في بيته ليقطف منها كل يوم زهرة حلوة للمعلمة وجند أبناءه ليزرعوا معه ، لكن أرض بيته الصغير كانت ملحية مشبعة بالحصى الرمادي .

«أرض سبخة ولا أعرف كيف نمت شجرة الحناء بها . .» .

في الفصل كان خلفان لا يبارح نظره المعلمة الرقيقة

الطيبة التي تتحدث عن العلم والكتابة وأهمية أن يتعلموا ليحسنوا أوضاعهم المعيشية وخلفان يتجاوب مع حديثها . . «بالطبع لو كنت أقرأ وأكتب لما صرت سائقاً في الوزارة . وإلاّ ما رأيك يا بو علي . . » .

هذا في البداية ، لكن سرعان ما يرحل خلفان في عوالم الزهرة ، يبقي ممسكاً بها في يده ، ضاماً إياها في أعماق خيالاته عاصراً نسغها . . لا شك أنها تفرح بزهرتي ، المعلمة الجميلة ، بالفعل تشكرني جزيل الشكر عليها ، ما أعذب ثناءها . لم ترفضها ولو لم تكن ترغب بها لرفضتها أول مرة ، ربما هي تتشجع وتتحمل مشقة تدريسنا لأنني أحمل لها كل يوم زهرة جميلة وإلاّ من يتحمل ساعات الظهيرة ليدرّس سائقين وعمالاً وعاطلين عن العمل إلى مغيب الشمس . . زوجتى لا تكاد تطيقني وأنا لا أطيقها ، هي متعبة مع أولادها وأنا أجيء ورأسي كأنه ساعة تدق . . ما أطيبك أيتها المعلمة ، وينقلب فكر خلفان في غمرة شرخ المدرسة إلى كيفية حصوله على زهرة الغد . . اليوم جلبت الزهرة من مكتب الوزير رأيت باقة جميلة صاعقة لم أر مثلها في كتب أبنائي ومن حسن الحظ أن الوزير لم يكن في مكتبه فأخذت واحدة دسستها مع المفاتيح وخرجت كفأر أتلفت يمنة ويسرة وضعتها في السيارة بعد أن رششت عليها الماء فشمس الظهيرة لا تبقى على الحياة الندية ، زهرة جميلة لو أستطيع أن أصف جمالها قبل أن تذبل للمعلمة ، لكني لا أستطيع التفوه أمامها ، فقط : «خذي الزهرة . . . » ولا تمانع في أخذها .

وهكذا لا تبارح الزهرة فكر خلفان في الفصل ، ساعات تقضيها المعلمة تكتب وتشرح وتتحادث مع العاملين وخلفان تكسره الزهرة بانشغالاتها . . .

ـ خلفان أنت كثير السَّرَحان . . .

سرحان خلفان تجاوز الفصل إلى اليوم كله ، في العمل وفي الشارع والبيت ، «مشاويره» الصغيرة صارت مربوطة بالزهرة التي من أين سيحصل عليها ، الذهاب إلى المستشفيات أجدى من الذهاب إلى الأسواق ، في الأسواق ، في المستشفيات والمدارس حدائق بها زهور ، ما أمتع الحصول على الزهرة يراها خلفان تنظر إليه وينظر إليها ، تمد نفسها يمد يديه ، تتصاعد موسيقى أشبه بالعزف على الماء ، تك . تك . طق طق . الزهرة في يد خلفان تودع حياتها لتنضم إلى حياته ، خلفان طائر يقفز على ظله ويخترق أعماق البحار ويستقر في فؤاد طائر في قلب سحابة في عمق قطرة خجل .

«زهرتك يا معلمتي» .

زوجة خلفان قامت في إحدى الليالي مفزوعة على أثر شد عصبي مليء بالرجاء . . كان خلفان يقطف ضفيرتها «زهرتي اقتربي من متناول يدي . . »

ـ أيها المجنون أترك شعري ، أية أحلام دارت برأسك .

«آه زهرتي الجميلة العابقة بظلالها ، الطالعة من خدرها ،

الفالقة حلمها ، المندسة في أنوارها . . خذيها يا معلمتي لك ، زهرتك زهرتك . . . » . وعاد خلفان إلى نومه كطفل وهو يحضن ضفيرة زوجته فاطمة المندهشة .

كما صادفت في إحدى المرات زوجة خلفان فاطمة ، خلفان وهو يوصي إبنته : « . . . أجلبي لي زهرة من حديقة المدرسة ، أرجوك يا ابنتي لا تنسي . . إن نسيت سوف أحرمك الطعام . لا، لا . . سوف أمنعك مصروفك . . لا تنسي حبيبتي أباك الطيب . . »

وكان يوصيها عشرات المرات ملاحقاً إياها إلى خارج البيت .

قالت زوجة خلفان :

ـ ما سر الزهرة هذه يا خلفان . .
سكت خلفان .

وعندما نسيت إبنته جلبها احتار خلفان ماذا يقدم للمعلمة فشجرة الحناء اقتطف خلفان كل زهورها .

ـ ما رأيك يا أبي نصنع زهرة من ورق الكلينكس وسوف أعطرها لك .

وقدم خلفان الزهرة للمعلمة ، لم تكن ذابلة هذه المرة كانت تفوح بعطر زوجته الرخيص .

زاد تولع خلفان بالأزهار فتحولت عيناه إلى زهرتين ، هكذا كان يراهما خلفان في الصباح الباكر في المرآة وفي

داخلها استقرت المعلمة اللطيفة ، العذبة ، المشرقة بالشباب الغض ، يتذكر خلفان صوتها الممتزج بالغناء المتوحد بالألوان والأطياف العصفورية . يرى كل شيء آخذاً شكل الأزهار . . الناس في الشوارع كانوا زهوراً تتحرك باضطراب جميل . . «ما أجملهم لو تراهم المعلمة ستسعد» .

الطيور كانت باقة زهور بتشكيلاتها المتحركة . البحر ينفث زهوراً بيضاء وكلما حاول خلفان قطفها ذابت في يده .

غطاء رأس زوجته فاطمة كان يجذبه بزهوره الحمراء . طعامه كان يراه بمرأى الأزهار فيتعامل معه بالقطف الرقيق الباهر . . وقد قامت زوجته بضربه على يده عندما رأته يضع سمكة مقلية في منديلها . . «يا رجل . . »

ـ يا فاطمة إذن أعطيني زهرة من زهور غطاء رأسك ما أجملها من زهور .

يا خلفان عندي زهرة بلاستيكية خذها ، ستجدها معلقة فوق المرآة . .

أخذ خلفان الزهرة البلاستيكية ولفها بأصابعه وأعطاها للمعلمة . . ولم يعرف لماذا لوت المعلمة شفتيها، لكن سعادة خلفان لم تتوقف عند امتعاض المعلمة ، قالت زوجة خلفان : «لماذا تبحث عن الزهرة كلما ذهبت إلى المدرسة» .

يا فاطمة الله يهديك إن فصلنا مغبر . .

دخل خلفان الصحراء النائية ذاهباً إلى إحدى القرى

النائمة وسط الارتفاعات والانخفاضات الترابية في إحدى مهمات المؤسسة التي يعمل بها . خلفان كان يفكر في الزهرة وأمامه يمتد مدى رصاصي مصهور بالاحمرار تظهر الشرارات العفارتية الزرقاء منه والتي تظلل اندفاعاتها ذهن خلفان .

«الزهور الحمراء الزرقاء تملأ الطريق . .» .

«أوقف خلفان السيارة عدة مرات ليقطف زهر الطريق لكنه لم يفلح .

واصلت الزهرة سحب خلفان بكليته وسط أكوام التراب النحاسي . من أين سيحصل على الزهرة في عمق الالتهابات الأرضية السماوية هذه . لماذا الزهرة يا خلفان . لا يعود خلفان مراجعاً النفس . إن المعلمة تفرح بالزهرة وسر السعادة يرش قطراته الباردة على قلبه .

«زهرتك يا معلمتي» ، يعطيها إياها وهو مختبىء مع نفسه في الظلال البرتقالية الحمراء . تأخذها بين أوراقها وتجفل ذاهبة مع العصف والنسائم والأوراق اللامتناهية للزهرة المقطوفة المتطايرة . . خلفان بعدها لا يعرف أين يذهب مع سعادته الصاعقة .

أمواج أثيرية تحمله فلا يعود يرى الأشياء والطرقات ، فيقص أمام زوجته ، «الدرس كان مفيداً يا فاطمة سأحصل على شهادة قديرة . .» .

ويخط خلفان خربشات أمام زوجته التي تكون مشغولة بالعجن والخبز .

في الطريق الصحراوي قارب الوقت على موعد المعلمة وخلفان لم يصل بعد إلى البيت ، كانت مهمة شاقة أرهقته في حين أن ذهنه كان منفعلاً بالزهرة .

«آه كيف أذهب إلى المدرسة بدون زهرة» أصاب خلفان ألم واخز في بطنه وصدره عندما رأى الطريق الأجرد والأشجار الرمادية التي بلا زهور ، يا لأسف خلفان من أين له بزهرة في عمق القحط الأحمر هذا؟ يا صحرائي التي بلا زهور لا تتأخري بي عن موعدها .

أوقف خلفان السيارة ليقضي حاجته فرآها : جميلة .

لم تقع على مثلها عيناه في الحلم واليقظة . أغمض عينيه وفتحهما ، كانت ماثلة أمامه . زهرة تفوح بالدوائر اللونية التي غطت النحاس فصار أمواجاً باردة عاطرة وكان خلفان ظلاً شفافاً مرتعشاً في البهرجة الزهرية .

نظر إليها . كانت تتوهج باشراق يسرق بقايا الدهشة من العيون ، تلتمع بأجراس شهدية عسلية مطرية ، رهيفة كريق طفل ، تتلاعب مع الارتجافات الباردة لنسيمها الخارج من ألوانها . .

«ها وجدتك أخيراً . إن معلمتي ذات حظ وافر . .» .

قرب خلفان يده منها فثقلت ، فمدها مرة وأخرى وأخرى ولم تصل .

اقترب وقرب يده فتساقط اللؤلؤ فراشات فراشات وتطاير

حوله ويده لم تصل .. أمامه ممتدة منتصبة كجسد عذراء ملتحمة بالأطياب الصحراوية تنظر إليه مزهرة بالخفة متنقلة كظبي يوازن إيقاعاته مع الانشراح اللامتناهي ..

ما أجملك زهرتي ..» .

اقترب خلفان متوخياً الحذر ، تتغرز أطراف أصابعه في الرمال المتحركة وهجم بانفعال حيوان بري على فريسته لكن يديه لم تصلا .. وهي أمامه تنظر إليه ، خلابة ساحرة بطيبها وأنفاسها الزعفرانية . ما هذا يا خلفان أتعاني ضعفاً في يديك ، إجر يا خلفان اتبعها .. جرى خلفان وكانت واقفة أمامه بفرعها اللدن تتراقص مع زخات الضوء كفرس تكاشف الريح عنانها .

ركض خلفان لاهثاً وكلما اتجه إلى جهة رآها تتمطى بالتفتح ، تتضاعف ألوانها وتنفض عطرها بخاراً يتسلل إلى خياشيم خلفان فيشتد جريه تابعاً إياها .

قطع خلفان مسافات غزيرة في الصحراء واخترق الكثبان الرملية وسواها بالأرض وغاصت قدماه في الرمال وتشققت بجروح لاذعة ... دخل الرمل شعره وعينيه وفمه وصار أشبه بكثيب رمل متحرك وكانت الزهرة أمامه . لامعة . متفرعة . سكرية ندية .

«اقتربي زهرتي ..» .

يناديها راكضاً خلف صوته مع الانفساح الصحراوي حتى إذا يبس حلقه من العطش وقف . فرآها مطرية .

ركض . حتى إذا دب الخواء الصحراوي بصفيره الحاد في أذنيه وقف . فرآها تعزف أجراسها موسيقى يموت ويحيا الفؤاد في أمواجها . . يجري خلفان تابعاً الموسيقي حتى إذا بعدت الصحراء واختلط الرمل بالسماء وقف فرآها قـريبة تظلله .

«أرجوك لا تبتعدي . . » .

ويواصل ركضه في الرمال الغائرة في اللهيب والأبخرة الساخنة تخرج من رأسه الذي كان مرجلاً يفرقع بالفقاقيع الفائرة . . أمامه كانت تفوح بالنسيم الخارج من البحيرات في الجنات الحلمية .

«آه . . آه . . لا تبتعدي» .

قلب خلفان كان طـائراً يـريد الانفـلات من السجن الحراري .

غاص خلفان في الرمل وكان ظلاً أحمر في صحراء لا بداية لها ولا نهاية ولا جهة ولا نجم . . قفز على ظله وهجم بكل ما أوتي من قوة فرأى نفسه وجهاً لوجه أمام سيارته . شعر خلفان أن يده وصلت . ضم يديه إلى صدره . أبقى إحدى يديه مضمومة والأخرى قاد بها السيارة، كان خلفان منتشياً بالرائحة .

لم يعرج على بيته ، ذهب مباشرة إلى المدرسة ، وجد الفصل مكتملاً بالحضور والمعلمة اللطيفة الرقيقة واقفة أمام اللوح الأسود تكتب حروفها .

خلفان كان مملوءاً بالرمل الأحمر حتى لم تبن من ملامحه إلّا عيناه اللامعتان بالفرح ، تقدم من المعلمة وناولها إحدى يديه المضمومة .

«خذي زهرتك» .

اندلقت حفنة من الرمل الساخن في يد المعلمة

نظر الدارسون ، زملاء خلفان ، إلى ما حدث . انفجروا في ضحك صاخب .

خلفان ترجل إلى كرسيه وهو مسحوق بالسعادة مخضب بالخجل .

واصل الاستماع إلى شرح المعلمة مفكراً في زهرة الغد .

«بحران» نشوان

بينما كانت المدينة البحرية تغط في نوم عميق ، ثقيل ، متلذذ وبينما كان القمر يشبه قـرص رغيف يتوسط تنـوراً ملتهباً . . كان الحارس سلطان يتولى حراسة البحر مبتدئاً بوضع قدميه على الشاطىء ومنتهياً برمي بصره إلى آخر المدى عند نقطة التحام الماء بالسماء . . وكان الحارس سلطان وهو يصرخ «هم . . أنا هنا» يمسك بخناقه شعور لزج لذيذ . وتزيد وطأة هذا الشعور عندما يكون القمر في شكل استدارة فتاة مولودة . . ساعتها لا يستطيع الحارس سلطان كتم شعوره بأن يضغط على نفسه إلى درجة اللهاث المتصبب بالعرق أو محاولاته البائسة الحمقاء بأن يركض مهرولاً من بداية الشاطىء إلى نهايته . إذ يبدو في ركضه أشبه بمن يرقص حول نفسه فيسقط . . عندها الحارس سلطان يتجه إلى البحر كآخر منقذ له فيرمي بنفسه في جوفه ويقول بينه وبين نفسه «كأنني ألمس حرارة امرأة ونصبح أنا وهي دائرة قمر بحري . أف ، ما ألذه . . ما أزعجه . . » .

في عمق الماء وفي أوج تلذذ الحارس سلطان بالماء تتيقظ عنده مسؤولية حراسة البحر فينتفض من الماء ويعود يطلق صرخاته التحذيرية : «هم . . أنا هنا» .

استدار القمر وصار لحافاً من الضوء الفضي وسلطان سادر في حراسة البحر بعصا ثقيلة . . رأى الحارس سلطان امرأة عارية تدخل وتخرج من البحر . أغمض عينيه ثم فتحهما على مدى اتساعهما عدة مرات ورش على وجهه وجسمه ماء البحر فرأى المرأة تدخل وتطلع من البحر. كانت امرأة في لون التراب النجومي . . «آه . . آه . . ». زعق سلطان غير مصدق. اقترب وهو يتأوه بالدهشة ثم ابتعد مختبئاً خلف وهدة رمال بيضاء وتأمل الجسد الأسطوري من البعد . . «آه . . ما أعظمه . . » دارت عيون سلطان مع دورة المرأة في الماء واليابسة ، بعدها خرج وهو متنازع ما بين شعور الحقيقة والوهم . اقترب ثم ولى هارباً . . عاد وهو يرتج ارتجاجاً ولمسها فتأكد أنه يلمس لحماً حاراً شبيهاً بشعوره فارتعش ونظر إليها بغشاوة ساخنة . . «أقلعي عن هذا الخزي» .

دخلت المرأة إلى الماء وكانت تطل برأسها كما تطل الشمس بين أكواخ الفقراء . دخل الحارس سلطان الماء خلفها اختفت المرأة داخل الماء فرأى سلطان أن موجة جميلة انبثقت بالقرب من الحركات الطائشة وعندما وقفت صوبه امتدت يد الحارس سلطان تلمس عيون المرأة وأنفها ثم سقطت إلى كتفها . . فاختنق سلطان ودخلت المرأة مرة أخرى إلى جوف الماء . .

«تشبه نخلة مبللة بالطلّ . . أستر يا رب» .

نفخ الحارس سلطان نفسه كديك ثم صرخ . «أنت تخالفين القانون . . اخرجي من البحر . . «هم أنا هنا» .

وعندما خرجت المرأة من البحر رطبة وشعرها أعمدة مطر وقف سلطان يتملى بصبيانية الجسد واحتار ماذا يعمل وكان لا يتوانى عن فتح فمه وعيونه وترتسم على وجهه كل علامات الدهشة والحيرة والخوف. . «هيا معي لا بد أن أسلمك للقانون. .» .

مشت المرأة أمام الحارس سلطان فبقي هو تحت طائلة النظر النزق إليها . . . «قفي أنا أمشي أمامك وأنت خلفي» .

وتقدمها الحارس سلطان بمشية نظامية مضطربة وبين حين وآخر كان يسترق النظر إلى الخلف فيبصر جسداً ينثني انثناءات أغصان ما تلبث أن تستقيم .

قطعا مسافة من التراب وكان القمر المدور يمعن في بث الألم المستعذب لسلطان الذي تتنازعه رغبة القاء نفسه في الماء ورغبة حراسة البحر . وصلا نخلاً ونظر سلطان صوب المدينة البحرية .

«سيراها الناس . سيتهافتون عليها «طرد الفكرة عاجلاً . .» المدينة رجل وامرأة لا يفيقان عندما يسمعان صوتي . . هم أنا هنا» .

«ها قفي» .

سكنت حركة المرأة التي ما زال شعرها يلطش سلطان بحبات من الماء فيلسعه خدَر ذلك الشعور فيدخل داخل نفسه المنحصرة ويهوي ويحس بزهقات روحه . «سيفان مسلطان

على رقبتي . . الاثنان يقضيان عليّ . رأى سلطان صورته داخل عيون المرأة . . شكل أخرق طويل معوج . وجه يبرز أنفه بنفس اعوجاج الجسم ، شفتان غليظتان تأكلان نفسيهما وعيناه داخل عيني المرأة كانتا طيبتين .

«. . أنت تمشين أمامي وأنا أحرسك . .» .

تقدمت المرأة الحارس سلطان ومشى خلفها يدوس على خطواتها فتخبط ووقع على وجهه وعيناه تسيلان . انحنت عليه المرأة وأوقفته فصرخ بعناد «. . هم ، ابتعدي . .» ولم يستطع الحراك وعيناه التصقتا بجسد العارية ولم ير طريقه» هم، قفي . .» .

خلع الحارس سلطان قميصه ولبسته المرأة النصف عارية وبقي هو كاشفاً عن جزئه العلوي ، شعر بتحسن في مشيته وقطعا مسافة من التراب والنخل . لكن ما لبثت ساقاه أن جمدتا فتهاوى «قفي» .

لبست المرأة سروال الحارس سلطان وظهر هو عارياً كما ولدته أمه . . «كنت معلّباً والله . . .» .

«هم . . اجلسي . بعدها تصلين إلى العدالة «تكومت المرأة تحت إحدى النخلات بينما سلطان بقي في مواجهة المرأة التي ارتدت الملابس العسكرية وكان لون القمر يشبه لون الصحراء الارجوانية .

اجتاحت الحارس سلطان موجة من الطيبة والرغبة في التمدد على الرمال وهو عار .

«انبسطي أيتها الجميلة . لا تخافي» .

وتناول يد المرأة برقة متناهية . . «لا شك أنك جائعة . يا أرق من الماء» .

وأشعل ناراً صغيرة ووضع سمكات في دائرة النار «كلي . . ما أطيب العالم بنار صغيرة وامرأة جميلة مثلك» .

«ما اسمك؟ . أقول لك ، لا داعي لاسمك . فقط كلي من السمكات إنها لذيذة» .

وشرع سلطان يأكل .

«آه. . . آه. . . أعيريني الملابس سأعود حالاً . . «وعاد سلطان بنفس المشية المضطربة وهو يمص شرابه وانقض على السمك ينهش منه ويسترق النظر إلى المرأة العارية .

«ما هذا الصمت المخيف كقمر البحر . . يا عارية» .

صب الشراب داخل جوفه فارتخت عيونه حتى صارت أشبه بالعيون المليئة بغمام سيهطل .

«تحبين البحر . كلنا نحب البحر وما تفعلينه أمر مخزٍ وستحاسبين عليه» .

«لكن ما هذا الجسد؟ ما هذا الكبرياء الملعون في الصدر؟ . ما هذا الصفاء المائي ؟» .

ونظر إليها نظرة ذات مغزى وتناوبت تلك النظرة المتوسلة ، لكن سلطان شعر بطعنة تنفذ إلى أحشائه المقلوبة

عندما ارتدت نظرته بقسوة أشبه بارتداد على جدار صلب . شرب زيادة من الكحول فلمعت عيناه ببريق فرح طائش ، وزادت حدة شعوره وتعلقت عيناه بالجسد العاري . سمع الحارس سلطان طقطقة في صدره تنشج . اقترب من الجسد فخارت كل قواه فجفل . . عندها تناول عصاه الغليظة وانهال على المرأة يضربها على كل أجزاء جسدها فكان رجع الضرب يتردد بصوت أشبه بالضرب على الماء . وأحس سلطان بنفسه كأنه يعاقب البحر في حين المرأة تتألم بحركة ارتدادية دون أن تصدر صوتاً .

«يجب أن أسلمك للقانون بأسرع وقت . قومي «قامت المرأة ومشى سلطان أمامها بملابسه الثقيلة وعصاه ومترنحاً يدور حول نفسه ويطلق صرخات تحذيرية ما لبثت أن توارت داخل فمه فسقط . زاد شرب سلطان حتى أنّت عظامه . دار حول المرأة دورات طويلة ورقص كمن يرقص حول النار في صحراء مظلمة ، ثم اجتاحته نوبة بكاء مفاجئة ، «أيتها الملعونة ماذا تفعلين في البحر» . ارتدّ صدى الصمت من المرأة العارية يصفع الحارس سلطان بصدمات لم يحتملها ، دار بمحاذاة الجسد ثم برك عند قدمي المرأة وامتدت يده تعبث بها وخيط رفيع من اللعاب ينتشر على المرأة غير العابئة بسلطان .

«من أنت . . تحبين البحر. . . آه. . . آه . . . » .

تبدل قلق سلطان إلى حزن أسود سيطر عليه فبقي مدة من

الزمن لا يتكلم ولا يحرك ساكناً ، متكوماً على نفسه أشبه بطفل خائف .

وقد ردد الليل في المدينة البحرية صوت الحارس سلطان وهو يحادث المرأة دون أن تحادثه . يداعبها حيناً ، وحيناً آخر يخرس وتصيبه نوبة بكاء مؤلم ، وحيناً آخر يدور حولها ثم يرمي بنفسه عليها فيرى أنه يطبق على التراب ، وحيناً آخر يمسك بعصاه ويضربها ثم يلتجىء إلى شرابه .

تحبين البحر . . أنا أحب البحر أيضاً . . نحن متفقان . . آه »

«سأسامحك ، ما رأيك؟»

«لا ، سوف ترجمين أمام الناس يا ملعونة . . يا عارية لا تستحين من البحر . . ومني . . ها . . .»

«تعالي نصير قمراً مدوراً» .

«يجب أن . . آه . . نعم . . سأسجنك مع الفئران والبراز والبول ، وستأكلين القيء الذي يدلقه بطنك . .» .

«هـا . . هـم . . أتحبي . . أتـحبيـنـي . . إنـنـي أحبك . .» ، وضع رأسه على صدر المرأة ونشج .

«إنني متعب . . مرهق . . أتحرسين البحر بدلي . .» .

«أرجوك احرسيه . . هيا يا حلوتي . . إلبسي ملابسي سأعلمك كيف تحرسين البحر . .» .

«خلع ملابسه ، وبطريقة مهتزة ألبس المرأة «البنطلون» على جزئها العلوي والقميص تركه لنصفها السفلي» .

«ها . . جميلة أنت بملابسي . . ها نحن متفقان . . .»

«الآن أعلمك حراسة البحر . أولاً يجب أن لا تخافي من البحر . . ستسمعينه ينفجر ينفجر حتى تُصمَّ أذناك ، ستعتادين على انفجاراته المتواصلة ، وصوت البحر سيقودك إليه ثم ستتسق خطواتك مع زحف البحر . بعدها يا جميلة تمسكين العصا ، بعدها تنفجرين كالبحر تماماً «هم . . أنا هنا» ، بعدها ، تصبحين حارسة البحر . .» .

«حارسة البحر بعدها لا تدع أحداً يقترب من البحر ، والذي يتجاسر على البحر تضربه حتى ينفجر الدم من عيونه وأنفه . . تضربه حتى يخرج الدم من قلبه . . عندها حارسة البحر يصير البحر ملكاً لها» .

تعالي نصير قمراً في البحر . .» .

«سيئة عليك ملابس الحارس . . تعرّي الآن . .» .

«آي ، أنا متعب ، رأسي كأن حجارة تضربه كل حين . آي تعبت من ملاحقة الناس ومن ضربهم حتى تخرج أدمغتهم الرمادية من تحت العصا . .» .

أنا متعب . صدقيني . رغم إرادتك ستصدقين . . إنني في حاجة إلى عريك تحت سراج القمر . القمر . . آه . .» .

«لا . . لا تعتقدي أنني لم أر امرأة عارية . نساء المدينة

المطيبات بالحناء والزعفران كن (. . . .) . . آه ، عاجز أنا . .» .

«خذي البحر لك . سأكون خادمك . . أرجوك إحرسي البحر . أنت ادخلي الناس مع الفئران والبراز والأشباح» .

«إننا متفقان والقمر حلو . . والماء صاف وأنت جميلة . . أنا أحبك . . لا أحب البحر . . أنت إحرسي البحر وأنا أريد أن أنام ولا أفيق . . أبداً أبداً . .»

أنَّ سلطان أنيناً حيوانياً ، ثم انتفضت روح شيطانية في سلطان وصرخ صرخات متتاليات حتى ارتج البحر : «هم . . أنا هنا . .» .

«يا ملعونة ماذا كنت تفعلين في البحر . يا ملعونة كيف تجاسرت على البحر؟ ألم يحذرك الناس؟ أما سمعت صوتي : «أهم . . أنا هنا . .؟» .

وهوى الحارس سلطان بعصاه الغليظة على رأس المرأة العارية إلى أن تطاير مخ رمادي رمادي .

«ألم يحذرك مصيرك؟» .

وزادت حدة الضرب حتى صارت العصا ملونة بالرماد والنار .

وعاد الحارس سلطان إلى قاعدة البحر يحرسه وهو ما يزال متنازعاً ما بين الدخول في الماء وحراسة البحر .

ساعة .. وأعود ..

يحكى في بلدتنا أن رجلاً حبس ابنته فلم تخرج إلاّ مرة واحدة ، قالت : ساعة . . وأعود .

أبوها ينتظر أمام حافة الشارع ، ويبقى ساهـراً الليل والنهار ، أحياناً يجلس وأحياناً ينكمش ، أحياناً يتأهب كأنه سينقض على ألمه ، وأحياناً يتردد من بداية الشارع إلى نهايته ، يركض كمجنون ويتباطأ كتائه . . وعندما يقترب أحد من الناس ليأخذ بيده إلى البيت ليهدأ ، يزعق في وجهه ويبكي كبكاء الأطفال وأشدّ ويقول : «تعذبني كلماتها ، أذني تطن بصوتها الرقيق تقول لي : ما زلت مسجونة» .

يتجمع المارة حول الأب الذي يحكي لنفسه «جاءتني وهي متزينة بثوب أزرق يشبه الموجة البعيدة ، ومغطية رأسها وصدرها ، العصفوران على أهبة الطيران ، بغطاء حالك ، كانت تفوح منها رائحة الحناء . . لم تكن تنظر في وجهي ، قالت : إنني ذاهبة إلى الشارع ، ساعة وأعود. ولم تنتظر مني الايجاب أو النفي وخرجت من فوهة الباب . . .» .

«وبعد ساعة لحقتها وأنا مذهول وشاتم لنفسي كيف تركتها

بتلك البساطة .. وعندما خرجت إليها ، رأيتها وسط الشارع بجانب الناس ، كانت تتحادث معهم ويختلط صوتها بأصواتهم ، لحقتها . عندما رأيتها تذوب وسط صراخ الشارع وتختفي رويداً رويداً كما تختفي الغيمة البيضاء في السماء الحارة ، جريت وراءها بطول الشارع وبامتداد الناس وأنفاسهم المختلطة وكنت لا أصل إليها ، كانت تنسحب ببطء مميت عني وأنا أركض وراءها . في لحظة ما تيقنت أنني أمسكت يدها الدافئة وضممتها إلى صدري ، قلت في أذنها نعود إلى البيت ، ويممت راجعاً .. لكن ما لبثت أن عدت إلى رشدي ، كنت كالحالم في منامه أنه يمسك فاكهة لذيذة وعندما صحا رأى يديه مسكونتين بالفراغ .. آه ، كانت تختفي أمام ناظري أجري والريح تضربني وأقدام المارة وشتائمهم ... كأنني في حلقة .. اختفت ولم أعد أميزها بين المارة وصدى صوتها يقول : «ساعة وأعود» .

استنفرت البلدة تبحث عن غريبة وقد حددت ملامحها من حديث الأب الفاجع . كان يناديها ويناغيها بأعذب الكلمات يذكر كل لمحة فيها ، كل خلجة ، وقع مشيها تمس الأرض وتتطير منها ، عيونها سحابة قاتمة من الحزن ، ووجهها لؤلؤة سمراء ، يقول بأنها غريبة عن الناس .

بحث الناس كل البيوت والطرقات والزوايا والأحجار والبحار ووجوه الناس ... الأب ما زال متصلباً ينتظر أمام حافة الشارع ، ينكمش وينطلق ، يعوي ويغني ولا ينام ... وما زال إلى يومنا هذا ، برغم الروايات التي أدلى بها كل أهالي

البلدة ، شيوخها وأطفالها ونساؤها ورجالها ، وبرغم الوقائع التي تلت الشهادات ، كل هذا حدث في فترة زمنية لا تقل عن ساعة ، التي تحدثت عنها غريبة ، وتلك الساعة الدائرية تشرنق الأب فيظل يحوم حول الشارع .

قال رجل من البلدة ، في وقت من الليل ليس بالمتأخر ، كنت ذاهباً لصلاة العشاء ، وعلى حافة الشارع الذي أقطعه عابراً إلى المسجد ، شاهدت فتاة شابة ترتجف كطير مبلول ، كان صدرها الصغير يعلو ويهبط ، تنظر إلى وجه الشارع . . وتحدث نفسها ، لم أسمعها إلا عندما اقتربت منها ، حسبي الله من الشيطان الرجيم ملعون شيطان الأرض ، عندما اقتربت منها هزت نفسي كانت مكحولة بلون الشمس الغاربة ، كانت عسلاً أسمر . . خفت عليها من نفسي وبقيت متوتراً أمامها أعرق وأجف ، قلت لها : «أدخلي إلى بيتك ، الشارع غير مأمون . .» نعم خفت عليها أن ينهشها المارة . . نظرت إليّ ثم استدارت إلى الشارع ، قالت بلغة مفككة وكأنها تدخل في نفسها ولا تخرج :

«الشارع يمضي ولا ينظر إليّ . .» .

أكمل الرجل : «ثم رأيت الفتاة تقول لنفسها : «سأرمي حجراً في الشارع» .

وتناولت حجراً قذفته إلى عمق الشارع . . ولا أذكر سوى أن بلبلة عصفت بالمكان . توقف المارة والعابرون وهاج الشارع وارتفعت الأصوات لاعنة . . وعندما بحثت عن الغريبة

وسط الجمع رأيتها واقفة محل سقوط الحجر . . . نسيت ما حصل بعدها . . . ثم بعد ساعة رأيت الغريبة تلف غطاء رأسها وتدخل مع شرطي في سيارته . . قال الأب لنفسه : «قالت ساعة وأعود ، لا شك أنها ضلت الطريق ، مسكينة لا تعرف الطرقات . . فقط تعرف طريق قدميها حول النخلة التي في البيت ، لا شك أنها ضلت الطريق . . .»

قالت امرأة من البلدة :

كنت أعبر الشارع ذاهبة إلى جارتي وكان الوقت صباحاً باكراً ، رأيت فتاة واقفة على حافة الشارع تنظر إلى العابرين متحفزة ، وعندما اقتربت منها كانت على وشك أن ترمي بنفسها في الشارع تحت الأقدام . تناولتها من كتفها . . رأيت عينيها منطفئتين ، رغبت أن أحضن رأسها ، بدت لي غريبة لأنني لم أشاهدها قط في البلدة ، قلت لها : «يا ابنتي الشارع لا يرحم» ، نظرت إليّ ، انطفأت عيونها أكثر حتى صارت أشد شحوباً من الرماد ثم سحبت غطاء رأسها على صدرها واندفعت وسط المارة ، وكان معظمهم من صيادي البلدة وقد أخبرني زوجي أنها بقيت مع الصيادين إلى أن باعوا سمكهم ، وفي آخر النهار تبعت أحدهم دون أن يدري إلى بيته ، وعندما خرج في اليوم التالي تبعته كأنها ظله وركبت قاربه . . وعندما سحبت شبكته شعر أن يداً تشاركه فرآها وجزع . . ثم تناولها وأقفل عليها قاع المركب . . وعندما انتهى من عمله بحث عنها فلم يجدها . ويحكى أنه سمع صوت ارتطام جسم بالماء وعندما نظر ما وجد أحداً إلاّ تجمع سمك كثير .

قال الأب لنفسه:

«إن ابنتي لها نخلة تسقيها وتشعر بالسعادة معها . . ولا شك أنها عندما تتذكر أن نخلتها ستموت من العطش ستعود . هي قالت : ساعة وأعود . .

«عندما أراها تكبر أشاهدها تشبه النخلة ، تأخذ نفس ملامحها ، تصمت مع مرور الأيام . . وعندما أجبرتها على التحدث سمعت كلماتها متقطعة وغير مفهومة ، فقدت لغتها . . » .

قال شاب من البلدة ، كنت قبيل الغروب ذاهباً إلى رفاقي لألهو على البحر ، وبينما كنت أعبر الطريق ، شاهدت فتاة ، يا ربي ما رأيت مخلوقة مثلها في البلدة ، جمدت عندما رأيتها وظللت فاقداً نفسي أدور حولها وأرجع أتقدم وأتباطأ .

داعبتها . . قلت «نظرة . . » .

نظرت وابتسمت .

قلت : «بسمة يا جميلة» .

قالت : «أنا غريبة . . » .
«أين دارك؟ . . » .
«هناك . . »وأشارت بعيداً ولم أر بيوتاً .

أكمل الشاهد الشاب حديثه : «قطع علي السبيل سيل من السيارات العاصفة السرعة ، فطار غطاء رأس غريبة والتصق

ثوبها الذي يشبه الموجة البعيدة بجسدها ، فكانت وردة رطبة في طوفان الريح . . أصابني دوار ولم أعد إلى نفسي إلّا على مشهد سيارة سوداء طويلة تدور حول غريبة ، سمعت من بداخلها يقول :

«أنت شهية وعصفوراك ألذ من الخمر . .» .

قالت غريبة «شهيـ ـة ـة . . .» .

قالت السيارة «أنت جميلة ، جميلة أجمل من قصور العالم . .»

«أنا غريبة . . .» .

«أشتهي أن أعصرك وأشرب عصيرك ، أشتهي أن أجعل عصفوريك وسادتين وسأنام الدهر . . . تعالي . . اقتربي يا جميلة . .» .

قال الشاب : «رأيت غريبة تدخل السيارة وسط الزعيق وطارت السيارة السوداء بأقصى سرعة» .

قال الأب . . وحوله المارة :

«لبست ثوبها الأزرق يشبه الموجة البعيدة، قالت ساعة وأعود . . إن ابنتي طيبة وجميلة وكانت عندما ترى الطيور في السماء أسمع لها صوتاً يشبه صوت الطيور الطائرة . . وتظل تدور وتحلق حول النخلة ، كانت تأمل الطيـران . . وقد شاهدتها مرات تلتصق بالجدران عندما تسمع غوغاء الناس المارين بالقرب من البيت ، تظل سائرة مع الجدار إلى أن

يختفي الصوت عندها تحزن ولا تعرف كيف تسرب حزنها . . وفي الآونة الأخيرة استدركت أنها توصلت إلى النظر من النافذة ، تبقى تنظر ساعات . . قالت : لي : «ساعة وأعود » .

قالت امرأة فقيرة من البلدة :

«كنت ذاهبة إلى المستشفى وبينما أقطع الشارع رأيت فتاة شابة ، سبحان الخلاق ، غزالة لكنها فزعة . عجبت من أمرها فقد مررت عليها ثم ابتعدت عنها مسافة وعندما استدرت رأيتها ما تزال واقفة . رجعت إليها ، قلت لها وأنا أستر رأسها وصدرها » عودي إلى بيتك ، عيب أن تقف البنت في الشارع» .

نظرت إلي ، وقالت :

«عندما كنت أنظر من النافذة لم يكن الشارع مشابهاً للشارع الآن» .

قالت المرأة : «لم أفهمها . قبضت على يدها لأعود بها ، سحبت يدها ، وعندما تركتها لشأنها وذهبت إلى المستشفى ، رأيتها جالسة مع بائعة فقيرة وقد تجمهر حولها كثير من الناس . وقد كسبت البائعة ذلك اليوم ما يكفي لمؤونة عام من القحط . البائعة أمسكت الفتاة وقالت لها : ابقي معي إنك حلال . . » .

بعد ساعة لم تر البائعة الفتاة وقد حكى الناس في البلدة أن الفتاة راودتهم عند بائعات كثيرات .

قال الأب : «إنها تحب الطيور وعندما تلمح طيوراً أراها

تتجه برأسها وصدرها إلى ارتفاع الطيور الطائرة وتخرج صوتها . . »

قال تلميذ من البلدة : «رأيت فتاة في الصباح واقفة على الشارع . . أعجبتني خبأتها في دفاتري . . وعندما أردت أن أنظر إليها في الفصل لم أجدها» .

قال عجوز من البلدة :

«بينما كنت أستظل عند جدار المسجد ظهراً ، شاهدت فتاة صغيرة تقف عند حافة الشارع ويكاد أن يغشى عليها ، وكنت أسمع دقات قلبها وصوت تنفسها . . أخذتها إلى جانبي ، بقيت ساكنة ثم ذهبت» .

قال سائق تاكسي من البلدة :

«رأيت فتاة واقفة عند حافة الشارع، توقفت عند قدميها وعرضت عليها خدماتي . دخلت السيارة وكان فيها عابرون متجهون إلى أعمالهم أوصلت أول واحد إلى مؤسسة حكومية ، فنزلت الغريبة معه ، حاولت أن أمنعها فتوحشت ، وقد علمت أنها دخلت معه إلى مكاتب الموظفين وبقيت تنتقل بين الموظفين ، وجلست بينهم تنظر إليهم قدموا لها الشاي وقطع الحلوى فكانت لا تمانع وتظل تنظر إليهم . . تهيبوها وتناولها أحدهم وأخرجها ، فعادت فأخرجوها وأقفلوا الأبواب . . فدخلت وبقيت تنظر في وجوههم فتناولوا ملفاتهم ورجعوا إلى بيوتهم . وقد عاد أحدهم من منتصف الطريق بعد ساعة وهو

يقول : لقد نسيتها مع الملفات وأقفلت عليها . . فما لقيتها بعد ذلك» .

قال الأب :

«كانت تنسحب ببطء مميت في الشارع . .» .

بعد ساعة من الشهادات التي أدلى بها كل فرد من البلدة أدلى آخرون بوقائع .

قال رجل :
«منذ ساعة وجدت جثة فتاة مختفية الملامح عند زاوية الشارع» .

قال الأب :
«قالت ساعة وأعود» .

قالت امرأة من البلدة :
«منذ ساعة دفنا جثة فتاة مشوهة ، لقد اعتديَ عليها المسكينة حتى اختلطت ملامحها . .»

قال طفل :
«لعبت في البحر ، بعد ساعة رأيت جسد فتاة تمشي عليها الأمواج ، لم تكن عيونها تتحرك ولا يداها ولا رجلاها . . كانت مغمضة العيون وتبتسم» .

قال شيخ عجوز :
«منذ ساعة عند باب بيتي رأيت «كرتوناً وعندما فتحته

شاهدت قطعاً لوجه فتاة ، جمعت القطع وكان وجه فتاة تشبه الطيور الطائرة يا رحيم» .

«قال الأب : «ما زلت أسمعها تقول : «إنني مسجونة» .

حكت النخيل أن أباً في بلدنا حبس ابنته وقالت له وهي متزينة برائحة الحناء . «ساعة . . وأعود . .» .

إن الأب ينتظر . . . يبكي ويضحك .

النشيد ...

قال جدي :

«سأذبحك كذابة الزريبة إن شاهدتك مرة أخرى مع تلك المرأة الملعونة» .

كان يضغط على شطر رقبتي بقدمه الغليظة . . وكلما أمعنٍ في حدة تهديده كلما زاد تغلغل قدمه في لحمي . ابتعد تاركاً جسمي ينبض كقلب كبير . كنت أشعر بأنني أتمدد وأنكمش كنبات صحراوي يتلظى تحت حريق الشمس .

اقتربت من أنفاس أمي وتطلعت إلى عينيها ووجهها أيمنعني لأنها امرأة سوداء؟» . .

قالت أمي :

«جدك يمقت الذي يخالفه . إن له فؤاد «نوخذا» يدفن غواصيه في عمق البحر بقلب بارد . . آه أشك باستطاعته أن يتجاوب مع توجعك تحت قدمه . . لا تثيري حنقه بالمرأة . .

كنت أساءل نفسي عن سبب منعه إياي عن «دهمة» وقد لحظته ، قد تبدلت أحواله لمجرد أن تسامع بأن «دهمة» سكنت

بالجوار منا . أراه معظم الوقت ساهماً شارداً ، ولا ينال إلّا القليل من الزاد ، وصار لا يخرج من البيت إلّا لماماً فأشاهده منطرحاً على جنبه والوجوم يسكن كل ملامح وجهه القاسية . وعند الفجر ـ فمن عادتي أن أقوم في الليل عدة مرات ـ أسمع سعاله الذي يصل إلى سمعي مع دخان غليونه . . كنت أتيقن بأن أمراً يقلق جدي إلى درجة المرض والاصفرار . وهذا التبدل حلّ على جدي مع قدوم المرأة في فريجنا . وعندما علم بأنني زرت «دهمة»، هاج وانفجر في وجه أمي وطرحني على الأرض يضربني بقسوة شديدة تفصلني عن أن أكون أحد جذوره الشرعية .

عاودت مرة أخرى زيارة «دهمة» يسحبني مقت جدي للمرأة ، وقد تملكني الاستغراب لأنني لم أر سوءاً يبعث على الخوف ، فالمرأة كانت جميلة إلى درجة يخشى المرء أن يطيل النظر إليها ، لها تكوين جسد جبار كأنه تكوين إلهة أسطورية . . آسرة كما تأسر الفاضلة الإنسان المقموع . . كفها واسعة إلى درجة تثير المفاجأة ورأسها يشبه تكوير رأس حمامة بيد أن ملامح وجهها تحمل سمة الصخر .

وعندما اقتربت منها ، رأيت رقبتها السمراء مجدولة بضرب قاس كأنه لسع سياط لم تعرف الرأفة البشرية . . وخلال لقائي بها لم تكن تفارق صمتها إلّا بحديث ابتسامة واسعة كانت تفتر بها بين الحين والآخر ، في حين كنت أتابع النظر الوحشي وبي لهيب أن تنطق المرأة . . وخرجت عنها

وداخلي يموج بشعور ظامي صوب «دهمة» التي تفترس جدي .

ـ «أمي ما حكاية المرأة؟ . .» .

أمي ، هي الأخرى كانت تجزع من سؤالي عن «دهمة» وتهرب هروب المستشيط بالنار .

ـ «. . أمي سأذهب إلى «دهمة» وليفعل بي جدي ما يشاء» .

تناولت أمي يدي وأجلستني لصفها وكان جسدها يرتجف كمن به حمى . .

ـ «إن لهذه المرأة سمعة سيئة و. . . .» .

ذهبت إلى «دهمة» وكانت عيناها مسكونة بغبش كأنه ركام غمام يراوح في سمائه ولا يسقط مطره . تفحصت وجهها ويديها وصدرها وبقية جسدها ، ولم يكن جسدها قابلاً أن يستلقي ويمارس العهر ، كنت أراها بشكلها الأسطوري المنتصب شبيهة بالشجرة التي تبتدع ذاتها . . آه إنني أشعر بأن عيني أمي تجافيان الصدق .

ـ «. . أمي ما حكاية المرأة؟ . .» .

التهب وجه أمي بالصفرة القاسية ، بلعت ريقها والتمست مني الرجاء .

ـ «لن يرحمك جدك . . . كفي عن المرأة . .» .

ـ «أمي سأسأل جدي عنها. . .» .

جأرت أمي قائلة وهي تسقط عينيها على الأرض . . .

ـ «إن المرأة التي تهمك ليست سوى سكيرة عربيدة . . انظري إلى عيونها . . .» .

وعند الفجر لم يكتم حركتي الخوف من سلطة جدي وتسارعت لاهثة إلى المرأة وفزعت إليها وعيني تتجه إلى عيونها مخبولة . . رأيت الآثار التي تحدثت بها أمي ، كانت عروق حمراء تملأ داخل محجريها .

ـ « . . جدي لماذا تمنعني عن «دهمة»؟ ألأنها سوداء؟ إنها جميلة . . . بدأت أحبها . . .» .

تناول جدي شعري بين يديه وعمق الألم في جلدة رأسي ، إنها وسيلته الوحيدة في التعامل معي .

ـ «أنت عاصية ملعونة . . ورأسك هذا سأسحقه . . تسألين عن هذه العاهرة . . اسألي أيضاً عن أبنائها السفاحين العشرة» .

تحينت موعد خروج جدي إلى مجلس الرجال في وسط سوق البلدة ، وعجلت بالذهاب إلى المرأة . . لا أعلم السر الذي يفقدني اتزاني صوب المرأة . . يقول جدي إن لها عشرة سفاحين . لكنها امرأة وحيدة ساكنة في الصمت ، وحولها يحوم سر يضربني من أجله بقسوة ويعرضني لرائحته عندما يثور . وما يدهشني أن جدي يضعف عند ذكر تلك المرأة .

دخلت عليها ولم تكن وحيدة . كان بجانبها شاعر عجوز أعرفه جيداً أراه في الطرقات والسكيك وأحياناً أسمع صوته فجراً ينشد بوجد ، بحب كان مستريحاً بجانبها مطمئناً . قلت في دخليتي ربما هذا المجنون هو سر المرأة سأسأله . . قربتني هي منها فجاءتني رائحة منبعثة منها كأنها رائحة نخلة . وعندما قربت ناظري لم تكن في موضع أن أحادثها أو ألتمس الرؤ ية عنها من الشاعر . وداخلني الصمت فلم أنطق . . . وكذلك الشاعر لم يزايد بحديث . . ومسحت هي على صدري دون أن تفتح حواراً . .

درت حول أمي . . وتوسلت ببكاء أن تقول لي شيئاً عن «دهمة» . . . انفلتت عني أمي واتجهت صوب جدي ولم يكن موجوداً . .

ـ «إنها امرأة مخبولة لا تملك رشيداً . . أمها لم تكن إلّا معتوهة وكانت تخرج عارية في الطرقات وتدخل البيـوت وترفض أن تضع على نفسها خرقة تستر ذاتها . . الناس هنا رجموها وضربوها . . » .

ثم بحلقت أمي في عيني وقالت . .

ـ «ثم وجدت مقتولة في إحدى الخرائب . . » .

وسكتت أمي ورأيت في وجهها تجعداً خائفاً . . وتلفتت إليّ بنظرة حيوان جريح . .

ـ «لماذا جنّت أمها؟»

ـ «الناس هنا ماتوا من الجوع . . والبحر لم يكن يوردهم إلّا المأساة . . لذلك لجأوا إلى خدمهم السود. والكل فعل ذلك ، الفقير والكبير . . وصاروا يبيعونهم بأبخس الأثمان . . أم «دهمة» سمعت بأن مالكها سيبيعها فقفلت على نفسها الخيمة وبقيت يوماً كاملاً ملتحمة مع القلق والخوف . . إلى أن جئّت . . »

ـ «لماذا يكره جدي «دهمة» ؟

ولم تجب أمي . . ربما «دهمة» صامتة بشكل أبدي على أمها . . ربما هي محاصرة . . لكن بماذا؟ شعرت بالحقد على جدي . . وصرت لا أنام إلّا فترة قصيرة وأتصدع طوال الليل مقابل جدار سينشرخ وينفرج عن وجه المرأة المعفر بالصمت وبابتسامة ليست هينة .

ذات فجر قربت «دهمة» رأسي من وجهها فتسللت إليَّ رائحة شبيهة برائحة التراب الذي أتى عليه الطل .

قالت لي : «لا تزعجي أمك المسكينة ، جدك ليس رحيماً» .

وأصبح الصباح وأنا واقفة عند رأس جدي ، قسماته لا تعدو إلا أن تكون قسمات نوخذا يمتهن المروق فوق أجساد الغواصين فتكبر ذاته بامتصاص دمائهم . لكن ما بال المرأة صامتة في حين جدي يجاهر بكراهيتها ، ولو درى بأنني لا أطيق الغياب عنها لنزع حرارة جسمي .

إنني أتملى بالمرأة ، تجعلني طافحة بـالمعاني التي يحصلها الواردون على صراط المعراج . . إن جدي يذبل مع الأيام في وجود المرأة في فريجنا .

ذات ليل ، اكتمل فيه القمر وصار بدراً . . طرق المجنون على نافذتي بعصاه ، وأخرجني معه إلى بيت المرأة . . ويا لهول ما رأيت ، المرأة كانت في أوج جمالها وقوتها ، وجهها امتلأ بمزيج من الصلابة والسلام والألم القاسي . عيونها كانت صافية صفاء يفوق بريق نجمة أو صحراء تحت مظلة الليل . وقد أشعلت ناراً في وسط بيتها وهي لا تتوانى أن تذكيها بقطع الحطب . . أف ، لروعة حركتها ، وهي تقترب من النار ، أشبه بحركة راقص يزاوج بين الفرح والحزن والكلمـات والمعاني وبين الصمت والكلام .

انتحى الشاعر بي مكاناً قصياً وكان القمر بدراً وذاتي ممتلئة بشعور غامر فجمال «دهمة» يرهقني ويكلفني فرحاً ثقيلاً ورؤ ية نشيدية . .

ـ «من المرأة؟ لماذا يكرهها جدي؟ هل هي بغيّ؟» .

مسح الشاعر على جزعي :

«جنت أم المرأة وقتلها أهل البلدة لعريها . ودهمة بقيت عند مخدومها وكانت فتاة يافعة ، وجمالها كما ترين يقتل الفاحش قبل السوي . . فكان يستر بالظلام ويأوى إلى فراشها متعززاً بشرعية أنه المالك لها . وفي أول ليلة باعد بين ساقيها وربط كل ساق برجل السرير . . اعتاد على ذلك ليال وهو

يجهش باللذة الوحشية . وأدركت زوجته حقيقة الأمر عندما تكوّر بطن الفتاة . . فتشبعت بالحقد والقسوة على «دهمة» . . أمرت الفتاة أن توقع نفسها من مكان عال ليسقط الجنين ، وضربتها على رقبتها وبطنها . . لكن الجنين بقي في تكوره . . فأطلقتها من الباب . . » .

نظرت إلى دهمة . . كانت لا تزال في رشاقة انحنائها ونهوضها لسعر النار . . شاهدت طبلاً بيدها .

«بقيت لوحدها في خيمة من الجريد . . وكنت أجلب لها طعامها وولدت بعد حين . . سعدت «دهمة» وانتشت ورقصت ، وكانت تطلق غناء شجياً عندما ترضع وليدها . . ومنعني ذات يوم أن أجلب لها الطعام وخرجت هي باحثة عن عمل . . . » .

«وعندما رجعت ذات يوم بعد عملها وجدت طفلها مذبوحاً . . » .

بدأت تطرق على طبلها طرقاً خفيفة وما يلبث يتعالى والنار تتقافز كأنها طيور حمراء تختفي في المدى . . .

«بعد ابنها ضميتها إليّ ، وهي لم تعد تتكلم ، كانت تصمت بشكل رهيب . . وفي أحد الصباحات نقلت خيمتها إلى عمق تواجد الناس في البلدة . . ولم أدرك ماهية الأمر إلاّ عندما فقد رجال البلدة السيطرة على أنفسهم فهاموا حول خيمتها كالذباب على العسل» .

كان وجه «دهمة» ممتلئاً باشعاعات القمر وبظل الليل . وقد ضمت الطبل إلى تجويف صدرها ، وهي تضرب عليها ورأسها يعلو كما يعلو رأس الذبيحة عند قطع وريدها . .

«هام الأغنياء وفقدوا اتزان غريزتهم» .

ـ «هل لها عشرة سفـ . . .»

ـ «كانت تنتقي الرجال . فإذا اندفع إليها أحدهم بقيت معه أياماً متتاليات ، حتى إذا شعرت بتكور بطنها أقفلت خيمتها على نفسها وامتنعت عن الرجال . . فيظل الرجل يهيم ككلب حول الخيمة . .» .

«وعندما تخرج وليدها يسمع في البلدة دوي نشيد يتغلغل في كل مكان . . في البيوت والسكيك ويتسرب إلى فؤاد كل فرد في البلدة . . ويظل النشيد إلى أن تنتهي المرأة من رضاع وليدها . . ثم تحمله إلى بيت أبيه . . والأب يستر ملامح وجهه في حين الوليد يكون متخلقاً بتلك الملامح واللون لون «دهمة» . . ويغدو الرجل كخرقة منقوعة في ماء . .» .

بدأت المرأة تنشد . . وتعالى صوتها كما يتعالى صوت ألم المرأة تحت وطأة المخاض . .

ـ «فعلت هذا مع عشرة رجال . .» .

ـ «لها عشرة أبناء . .» .

ـ « لها عشرات الأناشيد ، إنها لا تنقطع عن النشيد والبلدة

تصرخ . وقد أفصح أحد الرجال عن حقيقة ما جرى له مع دهمة وكان يبكي كطفل . . . . إن «دهمة» كانت تستلقي وهي واقفة كشجرة يحضنها ليل موحش .

ـ «لماذا يكرهها جدي . . »؟

ـ «جدك أحدهم . . » .

وانتصبت المرأة وأنشدت . . وأنشد المجنون . . واقتربت من «دهمة» فشعرت بالدوار وبتكور في داخلي يضرب في كل صوب من نفسي . . والتصقت مع المرأة وأنشدت . . ضربني جدي بفؤاد نوخذا . . وكان يزعق . .

ـ «. . إنها ممسوسة . . سأجلدها إلى أن تخرج الروح الغريبة منها ، إنها ممسوسة . . » .

عشبة ..

اختارت شيخة، زوجة مصبح، عشبة لتكون زوجة له ولوداً وتعهدت على نفسها أن ترعاها كابنتها. . مصبح استحسن الأمر. تعهد هو الآخر أن يرعى عشبة أمام خالها قبل أن يموت ويهتم بحلالها الذي يتضمن مزرعة النخل إلى جانب قطيع ممتد من الجمال والماعز والأكباش بالإضافة إلى خمسمائة دجاجة وديك، وأثار أمام الخال أنه سيقوم بدمج قطيعه الذي لا يصل إلى جزء عشري من قطيع عشبة في يوم العرس مع قطيع عشبة العروس.

ليلة الزواج رأى مصبح عشبة لأول مرة، كانت تبلغ ثلث قامته الطويلة، عيناها أشبه بعيني ضفدع، لحظ مصبح أن شفتي عشبة لا تنطبقان على بعضهما وكانت «تريل» على فستانها الأبيض المنتشرة عليه بقع حمراء وخضراء وصفراء وزرقاء. . أخذها مصبح إلى جانبه فخرجت من عشبة رائحة عنزة صغيرة. وفي الصباح قامت زوجته لتأخذ عشبة لتغسل ملابسها ودعكت جسدها بالعطورات اللزجة ومشطت شعرها الأجعد المخضب بالزيت والعرق من أثر ليلة العرس. باغتت شيخة قملة سوداء تعبر مسافة رقبة عشبة فأمسكتها وقصعتها. .

قربت طعام الإفطار منها: عشبة لم يبق لك إلاّ جلب ولد لمصبح ولي.

عشبة أكلت بينما لعاب رفيع يسيل مخترقاً الشقة السفلى إلى ما بين الفخذين.

ذهب مصبح ليرى الحلال. هذه المرة حلاله وحلال عشبة. فرز بعض التيوس الصغيرة ليأخذها إلى سوق المدينة ليبيعها وأبقى الإناث ـ جميلة أنت يا عشبة في الليل، تلمعين كعيني عنزة تبرق في ظلام روحي وتموئين كقطة خرجت من غيوم الرأس.. خضراء خضراء تقبلين مبللة بالأقمار.. يا قزمتي سيخرج ولدي مطلاً برأسه من عشبتي.

إنشغلت زوجة مصبح شيخة بالطبخ بينما عشبة جلست بالقرب منها تنظر بابتسامة مبللة بخيط اللعاب الذي لا يتوقف عن السيلان على صدرها الناهد أشبه بثمرتين ناضجتين. تململت عشبة من إرهاق الجلوس فبدأت تحك رأسها وأمسكت باليد الأخرى مؤخرتها الثقيلة. عشبة تريدين قضاء حاجتك. تمهلي قليلاً سأدلق الزيت على البصل وسنذهب سوياً. آه آه آه فعلتها في سروالك. لقد أرهقتك اليوم بإفطار ثقيل، العسل والزبد أسال بطنك.. تعالي يا زوجة زوجي وأم ولدي وولد زوجي سأدعكك مرة أخرى وأعطرك، ليس لي في هذا العالم إلا الولد ومصبح.

إرتاحت عشبة بعد حمام ساخن وناولتها شيخة صحن من فاكهة منعشة قعدت قبالته عشبة وشرعت تقضم وتناثر الفتات

مع اللعاب الهاطل على صحن الفاكهة. زاد بريق عيني عشبة الضفدعتين فباعدت ساقيها مقربة صحن الفاكهة إلى حضنها: سأحشوك بالطعام اللذيذ وسأسهر الليل والنهار أرعاك كما ترعى النجمات الأسرار الليلية وسأظل أنتظره ليقدم. أتت عشبة على صحن الفاكهة كله واجتاحتها موجة من النعاس الضجر فصارت تموء وتقلب الصحن وتضرب بأصابعها عليه وبقيت على حالتها هذه والذباب الجبلي يطن حول رأسها وبالقرب من الفتات المتساقط على صدرها ويديها إلى أن انتهت شيخة من إعداد طعام الغذاء. فأخذت عشبة بيدها مرة أخرى إلى المرحاض وأبدلت ملابسها التي تبللت بالبول الساخن: ستتعلمين قضاء حاجتك لوحدك وهنا، أنظري جيداً هنا وليس في السروال، لم يعلمك خالك الأعزب تصريف أمورك.. يا عشبة يا حبة قلب النخل والجبل والقطيع.. أعلم أن وطأة الطعام عليك شديدة.. لكن صرفي هنا وليس في السروال.

أقبل مصبح مبتهجاً من المدينة بعد أن باع كل التيوس: أنت قمر خير يا عشبتي. بعت تيوسك كلها كلها، أولادك الصغار، لقد رويتهم من لعابك الفضي كخيط نجمي في سماء حياتك، كبروا كبروا إلى أن ولدوا الدراهم... آه آه كم أنا مشتاق إليك يا عنزتي البيضاء.

سأل مصبح شيخة إن كانت أطعمت عشبة فأجابته هازة رأسها بإيجاب خجول، نعم أكلت، وهي نائمة الآن، لامعة مثل خاتم الذهب.

رأى مصبح عشبة نائمة فاغرة الفم، صدرها ينفجر أشبه بفقاعة سراب صحراوية، إقترب منها ووجهه تعلوه سحابة طيور هاطلة بمطر الحنان ثم دخل في ثياب النوم بمحاذاتها نظرت شيخة من شق الباب فرأت طفلاً يصعد من شخير عشبة. إنني في انتظار التيس الصغير يا عشبة لأحمله وأضمه إلى ضرعي.

إستيقظ مصبح سابقاً عشبة التي بقيت تعلو وتهبط في نومها وانحنى عليها مصبح ينظر إليها ممرراً يده على الشعر الزيتي وحاكا أرنبة الأنف الصغير: بماذا تحلمين، هل يا ترى أراود أحلامك، لا شك أنني أزعج أحلامك وأثقبها بقامتي البلهاء، لكن قلبي يحلم بك.. أنظريه.أقعد مصبح عشبة جالسة فنظرت إليه مجعدة الوجه ولمس تبلل السروال فأخذها مانعاً زوجته من الاقتراب وشيخة مصعوقة من الدهشة: قلبي عليك تود أن تكون أباً مثلي أماً.

خرج مصبح مع عشبة التي تبللت من قمة الرأس إلى أخمص القدم وكانت زاهية تمسك بمصبح من مئزره وتموء عارية كما خلقها الله.. أسرعت شيخة يحدوها الحياء بجلب ملابس عشبة، فتناولها مصبح مسرعاً كانسطاع صقر السعادة وجعل يلبس عشبة الرطبة ثم اختفى بها بعيداً.

لم يمر شهر على زواج مصبح من عشبة إلا وهي حامل وتتخبط تحت تأثير الوحام ولم تعد معدتها قابلة حتى الماء، وحار مصبح ماذا يفعل معها وأصبح كالمخنوق من أذنيه ومعلق بهما في فضاء معتم غامض. وكان يلجأ إلى شيخة متذللاً

متوسلاً إياها أن تضاعف عنايتها بعشبة المسكينة التي صار بطنها ينتفخ شيئاً فشيئاً دون أن تذوق الطعام.

شيخة لم تكن تمانع في جلب العون لعشبة خاصة وأنها كانت مهصورة تحت وطأة الفرح بالحدث السعيد، فأقبلت على عشبة بحماس لا يقف دونه أي حائل وكانت تستعمل كل أدواتها الحكيمة في سبيل إقناع معدة عشبة بالطعام، داوتها بالملينات التي تغسل المعدة من أدرانها ولم يكن يضير شيخة أن تبقى أياماً مع عشبة وهي جالسة على قاعدة المرحاض.. كما أغرتها بالمشهيات السكرية والثمار الطازجة التي جلبتها لها خصيصاً من سوق المدينة، إلا أن ذلك كله لم يقنع عشبة أن تأكل،وسعت شيخة زيادة بين الأشجار تبحث عن خلايا العسل وتسوقها لعشبة مع البيض الساخن والزبد الأبيض الأصفر.. ولم يسعف عشبة إلا زيارة قام بها مصبح إلى زريبة الماشية ليفرج عن قلب عشبة الكئيب من أثر الحمل الذي جعل فمها يسيل زيادة ويخضب الانتفاخ.. عندها أسرعت عشبة إلى إحدى العنزات وبركت تحت ثديها وجعلت تموء مطلقة شهقات الحنين الطويلة الوتيرة.. تذكرت ساعتها شيخة أن عشبة منذ ولدت وإلى أن بلغت الخامسة عشرة لم تذق طعام الكبار، وكانت تتغذى على الحليب فقط ولا شيء سواه، تنفس مصبح الصعداء وبكى من الفرح بينما انهمكت شيخة العقيم في التفنن بالمصنوعات اللبنية وتقدمها لعشبة الحامل وهي لا تنفك كل يوم في قياس الانتفاخ في بطن عشبة بمحيط غطاء رأسها.

مصبح أثناء الحمل وبعد أن اهتدت عشبة إلى الطعام لم يعد يقاربها وينام معها. . تركها لشيخة تهتم بها.

مصبح اهتم بمزرعة التيوس والنخل، فغرس المدى غير المنقطع من أرض عشبة بالنخل ووسع حظيرة التيوس والدجاج واهتم بجانب تغذيتها كما ضاعف عدد العاملين في المزارع. تضاعفت التيوس عشرات الأضعاف وفقس البيض آلاف الدجاجات.

وطيلة شهور الحمل لم يكن مصبح يلقي حتى مجرد نظرة عابرة على عشبة التي يتصادف وقت مجيئه مع وقت نومها وكان يكتفي بسؤال شيخة عن أحوالها، تضاعف جهد شيخة مع عشبة، عودتها الكثير من السلوكيات المنظمة، فعشبة برغم كآبتها التي لازمتها أثناء فترة الحمل وانتفاخ جسدها كله: الوجه، القدمان، امتلاء الصدر. . إلا أنها كانت تقوم باكرة وتذهب لوحدها لقضاء حاجتها وتخلع ملابسها منتظرة شيخة لتحممها، وتبقى ملازمة شيخة تذهب أينما ذهبت، تتبعها كظلها وهي ممسكة بوعاء اللبن الذي تتغذى عليه أثناء الحمل. وفي الليل تلاصق شيخة وهي واضعة ثلاثة أصابع في فمها وتغرق في مواء شجي لا يثير أعصاب شيخة وينام على عزف أوتاره مصبح.

وعند الولادة زاد مواء عشبة بطنين يخرق الجبال وكانت تمسك بضرح شيخة بينما أسلمت الساقين لمصبح الذي غرق في موجة بكاء حارق صعب على عشبة السابحة في بركة الدم.

المولدة جهدت في إقناع عشبة كي تتخلص من الوليد كما تتخلص من حاجتها وقامت بتمثيل العملية إلى أن تبرزت وبال مصبح على نفسه. . ظفرت بعدها المولدة بالوليد السمين الذي بهرها بجمال لم تشاهد مثله طوال عملها في مهنة التوليد، وخلال الأربعين يوماً من النفاس كانت شيخة تقرب الوليد من نهد عشبة ليتغذى بينما هي تناول بيد أخرى عشبة حليبها التي كان يبرق في عينيها خيط نافذ في تجعدات اللذة اللاذعة، وكانت شيخة تدور حول نفسها مع الوليد وتناغيه أشبه بمواء عشبة وتدخل رأسه في ضلوعها وتخرجه زاهياً بلون الورد، واشتغل مصبح مع القطيع ليتضاعف عدده عشرات المرات خلال الأربعين يوماً.

وبعد انتهاء الأربعين يوماً. . قام مصبح بنزع الوليد عن عشبة ورماه في حضن شيخة وقادها إلى خارج الباب وأقفله في وجهها وتناول عشبة إليه وقد غامت عيونه بندى ضبابي وبكى عند قدميها وكان يرتجف أشبه بمحموم في هواء صقيعي: يا سهامي الطائشة. يا وقع خطواتك على صفحة روحي يا ضجتي الخرساء. يا ليلي الأبيض. يا قشعريرتي. يا عشبتي يا وخزك الأبدي.

عشبة بعد أن ولدتها أمها مباشرة ماتت وقد سبق موت أبيها موت أمها. رباها خالها على حليب الماعز السمين وقطعه عنها بعد أن بلغت السنتين. عشبة رفضت تناول أي طعام غير الحليب ولم تعبأ بقسوة الخال والتي تصرع ثوراً برمته من ضربة سوط واحدة. . حاول الخال كسر شوكة عشبة في إصرارها

على الحليب. فكان يجوعها أياماً عديدة تاركاً إياها مع صحون الطعام الدسمة. إلا أن عشبة كانت تنصرف إلى الماعز وتظل تموء بالقرب من الأثداء الممتلئة بالحليب الأصفر. الخال لم تسعفه حتى النساء الجارات في جذب عشبة إلى البنات الصغيرات والتعلم من عاداتهن في اللعب وافتراس الطعام. وكان الخال يتجنب عيني عشبة المبحلقتين إليه ولم يستطع أن يقيم علاقة حميمة مع عشبة التي كان لعابها يسيل مع ازدياد عمرها. وكان يصدف أن ترى إحدى الجارات عشبة وهي خارقة في رائحة برازها وسط القطيع فكانت تشفق عليها وتنظفها إذ لم يكن الخال ينتبه إلى حال عشبة.. وبعد استغاثة الجارات أوكل إلى إحداهن تنظيفها «وفليها» من القمل الذي ملأ شعرها.. وبرغم هذا لم تكن تقارب النظافة إذ كانت تمسك بذيل عنزة تظل وراءها أينما ذهبت. وعندما بلغت عشبة الخامسة عشرة عرضت شيخه على مصبح أن يتزوج عشبة التي لم يرها أثناء خطبتها إذ كانت ممسكة يومها بذيل إحدى العنزات الممتلئة الضرع.

وعندما رأى مصبح عشبة لأول مرة شعر بقلبه يضرب نفسه بعنف أشبه بطقطقة جمر أحمر على جمر أحمر.

راودت مصبح طاقة عجيبة أثناء أيامه الأولى مع عشبة إلى أن بلغ وليدها الأربعين يوماً وضاعف الثروة عشرات الأضعاف.. وبعد الأربعين يوماً طرد زوجته مع الابن وبقي مع عشبة لوحدها دون أي نفس آخر يفصل نفسيهما الحار المشبع

بالأبخرة اللعابية: أشقني بغنائك لينسرب في جدار القلب. .
آه يا حباً أمسك نفسي فلم تعد ترى اتجاهاً غير مرآة عينيك. .
يا عشبتي يا عنزتي السماوية. .

وأغشى على مصبح عند قدمي عشبة يناجيها فاقداً نفسه. . أيقظته عشبة وهي تموء وحيدة مصفرة الوجه جائعة. . فجفل مصبح جزعاً وانتزع قلبه من ضلوعه وقدمه هدية رافعة، فزاد مواء عشبة التي انعكس احمرار قلب مصبح على وجهها المبلل. رجع مصبح إلى نفسه وأدخل قلبه ليشمر عن يديه ويعد غذاء عشبة التي أمسكت به كما تمسك بذيل عنزة وكان صوت موائها يختلط مع طرق مصبح للأواني.

شيخة انشغلت بوليدها. مصبح أهمل القطيع والزرع وانغمس في الاهتمام المريع بعشبة. فأحياناً يناجيها يوماً كاملاً إلى أن توقظه من سباته بموائها الجائع أو المنعصر أن وصل بها الأمر في إحدى المرات عندما غرق مصبح في تأمل غائب لها وهو منكفىء عند قدميها أن قضت حاجتها في حضنه. . ويحضر مصبح أحياناً فيجسد لها رعاية ما حصلت: يقوم باكراً ويهيىء إفطار عشبة ثم يوقظها حاملاً إياها إلى البئر البارد ويظل يهيل عليها الماء وتتناوب ارتعاشات عشبة مطلقة مواء مختلطاً به الخوف مع السعادة، ويمشط شعرها متفنناً في ابتداع تسريحات ما حلمت بها عشبة: تارة يخضب شعرها بالزيت الناري الرائحة وتارة يملؤه بالعطر والماء ويظل يرقب لمعان نجماته.

جلب لها من سوق المدينة مجموعة من الأصباغ وألواناً قزحية من الأقمشة وتفرغ يومياً لها لحياكة ثوب لها جميل يسحق فيه النقوش الصارخة التي يفاخر بها الناس في الجبل على أبواب بيوتهم الحجرية، وكان يمضي إلى الجبل جالباً الأحجار البراقة مزيناً بها أثواب عشبة، وعندما كان يدخل الإبرة ثوب عشبة يخفق قلبه في الجسد بعزف وتري تتداعى له روحه فتحوم طائرة راسمة هالة تتوج شعر عشبة الزيتي وعندما ينهي حياكة الثوب يقوم بإلباس عشبة الثوب ومقرباً إياها إلى عينيه لتنظر في مرآتهما ويكمل مصبح زينة عشبة بوضع الأصباغ على عينيها وشفتيها الهاطلتين وعلى حلمة ثدييها ويقعي عند قدميها: عشبة روحي عديني أن لا تنظري إلى أحد غيري، عديني أن لا تلمع عينا أحد بأقمار مطرك. أعدك أنت العشبة الوحيدة المتورمة في سويداء الفؤاد.

وقبل أن تنام عشبة يظل مصبح يهدهد نومها ويحكي لها قصصاً لم تروها بعد جنيات الجبل. عشبة كانت تستمع إلى لحن صوت مصبح وتنام قبل أن ينهي جملته الثانية، لكن مصبح يكمل الحكاية إلى آخرها.. ثم يقضي ليله ساهراً حارساً نوم عشبة التي تنغمس في نوم ضاج تقوم فيه بالحديث الشجي من أغوار أنفها الكلبي.. وقد قام في إحدى المرات بضرب عنزة سوداء ظهرت في أحد أحلام عشبة، إذ كان مصبح يكره الماعز الذي اعتقد أنه ينافسه حب عشبة.

تواترت على مصبح أهواء من الحب الضارب بأشواكه الجهنمية في قبضة القلب: كان يلبسها أحياناً أجود ما صنعت

يده وما سال عليه من دمع عينيه وأحياناً يبقيها عارية لا تسترها إلا حبات الماء. وأحياناً يبقيها جائعة وهو سادر في موجة اللذة بسماع موائها. وتارة يتخمها بالطعام حيث يقوم باكراً ويجلبه من شرايين الأشجار ومن أفئدة الطيور الصباحية ومن طيات السحاب الأبيض ومن دموع الجبال البنفسجية.

فكر مصبح في إحدى نوبات العشق بعد أن أنهى تزيين عشبة بالذهب البراق وبعد أن ألبسها ثوباً حريرياً أصفر اللون وبعد أن ملأ شعرها بالياسمين وزهور الحناء.. فكر جاداً وعازماً أن يصنع لها مملكة جميلة في عمق الصحراء: بيتنا هذا لا يليق بك، بيت منطفىء طيني لا يليق بازدهارك يا عشبة حياتي.. ما رأيك في بيت أبيض يعتلي الجبل، الصحراء تمتد أمامه والبحر من خلفه.

تحسس مصبح زنديه الهابطين وبسط كفيه العريضين أمام عشبة المختنقة النفس من أرطال الذهب المعلق في رقبتها وعلى جبهتها وبين أصابع يديها وقدميها: أنظري كفاي هذان سيصنعان بيتك، مملكة حبنا. دمعت عينا مصبح فرحاً ودار حول عشبة صاعداً برأسه ومصفقاً بقدميه على الأرض: يا بيتنا الأبيض، يا سحابة تعلو رأسه، يا رياحاً تلتف حول شجراته. يا عشبة ستسكنه. يا قلبي سيسكن في قلب عشبة.

أطلق مصبح ساقيه للريح وصعد الجبل..

بقيت عشبة تنظر إلى نفسها وتدور حول المكان، طردت زهور الياسمين من شعرها وألقت الذهب على التراب..

وجعلت تبكي بكاء ضاجاً أشبه بثغاء ماعز مولود وكانت تضع رأسها بين يديها وتشهق، وبقيت على حالها هذا أياماً وكانت تتناوب في البكاء والنوم إلى أن أقبل مصبح مبتهجاً بعد أن غاب أسابيع طويلة.. وحمل عشبة الباكية بين ذراعيه ودار بها حول نفسها وصعد بها إلى سحابة اتخذت شكل امرأة واقفة تحمل جرة... وقد ارتوت عشبة من الجرة فهدأ بكاؤها ثم صعد بها مصبح الجبل، لاح بيت جميل أبيض كحليب الطريق النجمع. عشبة أصابها هدوء غريب عندما اقتربت من البيت بناظرها وهي جالسة على كتف مصبح.. سمع مصبح قلب عشبة يدق دقاً مستقيماً لا تشوبه أي تواترات صاعدة وهابطة، أعجبك البيت. شرب عرقي ودمعي عندما فارقتك. آه ما أصعب فراق الأحبة، البحر يعكس خضرته وزرقته عليه والسماء تخضبه بأمواجها والجبل رجل راسخ القدم يحمله، يحملك يا سراج عيني. دخل مصبح بعشبة داخل البيت، غرف واسعة حتى لا ترى جدرانها، أرضية مليئة بزهر الرمان لون شفاه عشبة.. وبعد جولة الاستطلاع للبيت، نام مصبح عند قدمي عشبة المنكمشة الهادئة الصامتة حتى عن المواء، وهو يهذي: مملكة حبنا، عش العصفورين، بحر السمكتين، أرجوحة النجمتين، في البيت الأبيض لم تقم عشبة من مكانها لتسكن الحجرات العديدة وظلت في مكانها الذي حطها به مصبح.. ولم تستطع أي حركة دافعة من مصبح لزحزحة عشبة من مكانها وبقيت في هدوئها بينما أصاب مصبح الاضطراب البالغ الأسى: فديتك أين ضاع مواؤك، إن شئت سأملأ البيت

بالماعز. لكن كفي عن صمتك برغم أنني لا أحب هذا الماعز اللعين، لا أحبه لأنه يسلبك مني. يا لون ليلي.. لم ينل إعجابك البيت الجحيم تحرقه.. هيا نرحل عنه.

مرض بعد ذلك مصبح واجتاحته نوبات راعفة من الحمى الحمراء وغامت عيناه في البخار الندي وزادت وحشة ألمه عندما شعر بعجزه عن الاهتمام بعشبة وكان يهذي في حماه وعشبة تنظر إليه وهي تموء: عشبتي، السماء بيضاء، الملائكة بيض. العشب أبيض. قلبي أبيض. حبك لون حياتي.

لكن مصبح سرعان ما تغلب على مرضه وديدانه وعاد إلى عشبة.

مصبح عود هوائي. عشبة كرة متدحرجة سمينة:

ما أنا إلّا غبار قيامك وقعودك.
ما أنا إلّا فقاعة وحيدة في سحائب أنفاسك.
ما أنا إلّا ظل أبيض يلحق ظلك.
ما أنا إلّا وحشة مخنوقة في ليل هدوئك.

زاد اهتمام مصبح بعشبة لحظات حياتها الأخيرة والتي نما فيها وليدها إلى أن استطاع أن يحبو في إحدى المرات منفلتاً من يد شيخة واقترب من عشبة متجعداً أشبه بدودة تصعد ورقة خضراء وانقض على ثديها يمتصه فضحكت لأول مرة في حياتها عشبة.

مصبح زاد نحوله حتى أصبح أشبه بنخلة مجوفة القعر

وتضاعف شغفه المهووس بعشبة، كما أنه لم يقاربها بعد ولادتها واكتفى بعشقه الحار لها.

في أحد الصباحات والتي مشى فيها وليد عشبة لأول مرة نهض مصبح باكراً واقتطع خلية نحل وعصر عسلها وخلطه مع الزبد وقدمه لعشبة وهو أشبه ما يكون في رهافـة النسيم الصباحي وأقعى عند قدميها.

عشبة التهمت كل ما قدمه لها مصبح ثم قامت بشد ملابسها إيذاناً بقرب الاستحمام ودخلت المرحاض ولم تخرج منه، إذ استولى عليها إسهال لم يتوقف عنها إلا وهي ميتة.

عادت شيخة إلى بيت مصبح الذي أصبح «يريل» على ملابسه ولا يقارب طعاماً سوى حليب الماعز.

هيام ..

لا تعرف سر الشعور الذي انسرب مثل حية خبيثة في أنهار باطنك. لم تنم. كنت تراقب القمر المكتمل وهو يحمل خارطة امرأة تخترق خربشة شجر ضبابي.. وإحساس بالثقل المبهم يخدر حركتك ويجعلك قعيد السكون. تهفهف عليك نار فرنية بصوت ريح بعيدة تلاعب المجهول الذي يعتور داخلك.

جالس وحدك وسط أكوام كتبك وفراشك المجعد وأعقاب السجاير الميتة.. ترتب الريح الوحيدة الآتية من ظلمات القمر الضبابي مصعدة نار باطنك.

طلعت خيوط السحر مجدولة بأنفاس امرأة تلبس الماء، فتحت طريقاً في الضباب وخرجت مبتلعاً باطنك الملغم.

ها أنت تمشي وحدك يبللك الندى.. تصد الأذرعة الهوجاء لمحيط الضباب، مثقلاً بحمل لا تعرف فك أسراره ولا تعرف إلى أين ستقودك قدماك.. البحر اقترب بليونة لاذعة من أصابعك وتراجع، تراجع واقترب. همت في مغارة نفسك المطفأة التي تصفر بأصوات كواكب مجهولة مغادرة نظرت فيها

أعماقك تفرك بالرمل وشظايا الـزجاج والجمـر الجهنمي. غادرت البحر مسحوباً بلا شكل أو اعتيـاد ذهني يربـطك بالطريق.

تمشي وتجر معك جبل تراب.. تبعتك عنزة خمرية مبقعة بزخات من القطن، انتبهت إلى ذيل ثوبك يؤكل، اجتاحك شعور مباغت يحمل لذة امرأة تفتح آفاقاً بأصابعها في رأسك. تذكرت بسعادة خجلة مشاغبتك مع الفأر وأنت تطارده أياماً خوفاً على كتبك، كنت تلاحقه في الزوايا والشقوق وقد قلب عليك مكتبتك فغدوت كفأر مجعد بين الكتب المنسوفة. ضحكت، بكيت عندما تذكرته ميتاً بين يديك. قتلته بحيلة صناعية. وعندما أردت الخلود إلى النوم، خرجت لك من كتبك العزيزة عين فأرية أنثوية مليئة برموش وجدانية. قضمت ألمك بانشطارات عذابية وقضيت ليلك في المرحاض.

عدت لغيابك والعنزة أتت على نصف الثوب.. عدة مرات تعثرت بأحجار لم ترها وسقطت على وجهك. لم تبال بشيء. صفعتك شابة جميلة رائعة القوام وهي تصرخ لائمة نزقك المبكر جداً لملاحقتها في هذا الوقت الفجري.. وعندما تطايرت نجوم حمراء من الصفعة المطبوعة على وجهك رأيت الغبار المتخلف للفتاة المبتعدة الجميلة وعنزتك تراقبك.

سحبك تيه. وصلت نقطة العذاب الذي يخفي علته، قادتك العنزة إلى بيوت وأطفـال ونساء وكنت هـائماً في اللاتحديد.

دخلت العنزة بيتاً مزهراً بالخضرة المجرحة بشمس باردة. دخلت معها، رأيت حركتها المتقافزة وهي تأكل متنقلة من شجرة إلى أخرى. انتبهت إليك وإلى رفيقك العنزة مطرودين من البيت الذي أتت العنزة على نصف زرعه.

ها أنت تمشي تخترق البيوت مساقاً بروح غامضة سوداء.. رأيت جمعاً نسوياً أسود، كانت حركتهن غير عادية. انسربت في عمقهن بينما تلهت العنزة بقضم الأوراق المتساقطة، تبعت امرأة مرتبكة تبكي بأنين، سألتها: «لماذا وجهك منتفخ؟» زادت حدة بكائها وغاصت وسط النساء. امرأة أخرى كانت جالسة على الأرض، مذهولة، وجهها مبعثر وعيناها لا تنظران إليك، سمعت صفيراً مبحوحاً ينبعث من داخلها وقع قلبك بين ضلوعك ولم تجرؤ على سؤالها.

رأيت من البعد أطفالاً، تحلقوا حول عنزتك وبامرأة بالقرب منهم تصد حركتهم الدائرية المتنازعة على الاقتراب، حيث كنت وحيث كانت النساء تتراص، تصدر عويلاً وبكاء واضحاً يشق جيب الصباح، امرأة طلبت منك طريقاً، ابتعدت لتفسح لها الدرب. لم تفوت الفرصة. تبعتها. اخترقت الحلقة التي صنعتها النساء. رأيت امرأة مسجاة مغطاة بقماش أخضر، كانت أشبه بالنائمة نوماً هادئاً غير عابىء بما حوله، ترقد على سرير خشبي غير أنيق. أثار دهشتك الباردة البلل الذي يحيط بالسرير الخشبي، رأيت امرأة باكية مأخوذة بحزن دفين تقترب من المرأة المسجاة وتفرغ قوارير من العطر الدهني في أنف

المرأة وحول رقبتها وفي أذنيها. سألتها هامساً: «تعطرينها وهي نائمة، لكن العطر في الأنف سيخنقها.. انتبهي..» «المرأة لم تسمعك. هكذا استنتجت عندما لم تنظر إليك ولم تتغير ملامحها بأي تعبير يقابل سؤالك. واصلت تزيينها للمرأة النائمة التي بدت لك شمعية ساكنة وإن ما زالت آثار لون الورد على الوجنتين المستغرقتين.

رأيتها منهمكة بكآبة في وضع معجون أخضر نافذ الرائحة في مفارق شعر المرأة، كم هو جميلٍ شعرها المبلل المستلقي بعناية سوداوية عابراً الكتفين ومنتهياً عند التدويرة العجيزية. فركت المرأة المزينة أطراف النائمة المسترخية بدهن كريم الرائحة. خدرتك الرائحة، ساعتها دفعت بشكل مباغت، وزعيق أسود جاف مكسر، يقترب من قلبك، قذفت خارج الدائرة، تحول الزعيق إلى شهقات متلاحقة «آه.. يا ابنتي الحبيبة ستغادرين بعيداً عني..».

حاولت أن تكسر محيط الدائرة، لكنك لم تفلح. الدائرة محكمة بالبكاء والرائحة العطرية تتصاعد مخترقة نفسك الحار.

امرأة عجوز كانت بجانبك تحاول الدفع سألتها: «لماذا يزينون النائمة..» لم تعتقد أنها سمعتك. ذهبت إلى الأطفال وكانت فرصة سانحة للمرأة الحارسة أن تتركهم لتذهب إلى حلقة النساء. كانت هي الأخرى تبكي ووجهها متورم. جلست تحرس الأطفال وقد أرهقوك وأنت تحاول الإمساك بهم خوفاً

من أن ينفلتوا. لم تجد فرصتك لتسألهم حول ما يجري. انسقت تلقائياً معهم في أحاديث طفولية وقصصية بالرغم من أنك لم تتعامل مع أطفال فيما سبق. كنت منحصراً في كتبك المبعثرة المظلمة المفروشة بحواراتك الذهنية والمعرفية، والمزينة بلوحاتك المفضلة التشكيلية. أنت نفسك لم تتعامل مع امرأة بعد. تعشق لوحة بيكاسو. المرأة العظيمة المتسقة بعملية وحالة الكوى. لا تعرف حتى اسم اللوحة. أقمت معها علاقة. تعود، تبقى ساعات طويلة تنظر إليها وتجري معها حواراً باطنياً مهيمناً مطمئناً.

هذه هي لذتك الوحيدة. تذكر أيضاً أحببت ابنة الجيران عندما ناوشتك باهتمام خاص، فرقت بينه وبين حنان أمك. تبادلت معها الرسائل والالتقاء خلف الجدران المجتاحة بالرطوبة والظل المغبش، وعندما تزوجت ابنة الجيران من رجل آخر لم يعد الأمر عندك سوى الاحتماء بظل حشائش لبعض الوقت ثم الرجوع إلى ظلك.

انصرفت إلى كتبك. وأمك الوحيدة لم تنفك تعلن رغباتها الطويلة المؤلمة في رؤية أطفالك.

حكيت للأطفال عن فأرك. ضحكوا عليك، سألتهم عن المرأة، سألوك هم أيضاً، هل تعرفها، لأنهم لا يدرون بما هو حاصل لها، عاودك الشعور بالثقل والاختناق. تركت الأطفال ولحقت بالمرأة النائمة.

الدائرة انفرجت قليلاً وأتاحت لك فرصة الرؤية بوضوح

غائم. ها هي نائمة باسترخاء قلق وشعرها ازدوج فيه البلل والجفاف وأرسل لمعاناً خاطفاً وامضاً أشبه بتردد نبضات ألمك واقتربت أكثر. أمسكت الشعر. تراخى بين أصابعك وتناثر كماء. إحساس متفجر غمرك أعقبته مسحة هوائية غزتك من الداخل مرددة أنفاس جنات غيبية وبحار أسطورية تنفث زهوراً وأبخرة عطورية. ارتخيت لتمسك يدها. لم تستطع ذلك فقد كانت يدها مقيدة بالغشاء الأخضر، حاولت أن تفك القيد، لكنك لم تجد له بداية أو نهاية.

جلست على ركبتيك وانحنيت على وجهها الذي تهيأ لك أنك تعرفه. همست في أذنها المعطرة «أشرقت البحار وغسلت الأشجار وجه الصبح ولم تقومي بعد.. هيا استيقظي..».

ضربتها عدة مرات بلطف جميل على وجهها، ثم أخذته بين يديك، لكنه انفلت منك ورجع بسلام إلى وسادته، جميلة في نومها المطمئن، شق العينين النصف مغمضتين، لذة الاستيقاظ والاسترخاء المنمل، فرجة المطر يكسر خيوط الصحو الأبيض الظل يسحبه مهر في مدى متراقص. الأنف مستقيم أشبه بعلامة واضحة لا لبس فيها، والعنق ممتد كرؤاك المنسجمة.. سكن منك كل صمت، لتخلد روحك في هذا التكامل، كأنك تسمع موسيقى أعماقك المظلمة التي لم تتعرف عليها ضاربة على وقع النشوة الغامضة والسعادة القابضة، محمولاً على أجنحة تصعد بلا حركة، محتضناً وجهها في صدرك.. مسمراً هكذا، معطلاً بلا انتهاء.

انهرت باكياً كطفل. وجدت نفسك، تسير معهم رجالاً مغبرين ونساء متطيبات برائحتها، ويحاذي الجمع الأطفال والصبية الأشقياء وعنزتك التي أصبحت تسيـر على هوى رائحتك.

سكون كئيب يخترق حتى العظم ويهشم فيه القلق، السرير الخشبي محمول على أكتاف الرجال يتطاوح ذات اليمين وذات الشمال، لا تعرف إلى أين أنتم ذاهبون، التفت إلى جارتك، كانت جارة محتشمة جداً تسبح في ترتيل كلماتها الروحية المؤثرة. قطعت عليها خلوتها «إلى أين؟». لم تجد جواباً. عدة مرات طرحت سؤالك الشارد. أخيراً التفت إلى عنزتك لتهمس في أذنها «هل تعتقدين أننا نسير في الاتجاه الصحيح» رأيت في عين العنزة ابتسامة مجهولة، كانت هي الأخرى شاردة وتحدث نفسها بالثغاء. كأنه خارج من بئر. قلبك مقبوض من هذا الجو الكئيب.

صرخت في وجه الجميع «لم التباطؤ؟.. أسرعوا.. قلبي حزين لهذا البطء.. إلى أين نحن ذاهبون».

هذه المرة سمعك الرجال، فزاد إيقاع أقدامهم على الغبار وتحلقت علـى السريـر الخشبي غيمة من اللهـاث المشقـوق. عـاودت سؤال جارتـك «ماذا يحـدث؟. إلى أين ذاهبـة النائمة؟.. أخبريني عنها..» هل أصاب جارتك الصمم؟ إنها لا تعيرك أي اهتمام. التفت إلى أخرى وسألتها. لم تجبك، عيونك محمرة بالبكاء الذي يدعوك لتشاركهن.

أخيراً توقفوا في مكان مقفر، موحش، تسمع فيه طقطقة الحجارة وصوت اللا شيء الغامض. أظلم قلبك وراودك شعور بالبكاء ثقيل. بكيت بشهيق طويل حاد، توجه الرجال لبكائك وطلبوا منك التمسك لتصلي معهم أمام السرير الذي تنام فيه النائمة. أنهيت الصلاة، لتقع في الحفرة التي لم ترها، شعرت بضيقها وعمقها الدافىء، حفرت جديداً.

هرولت من الحفرة عندما رأيت تحلق النساء حول السرير، تصعدت في الآفاق الرصاصية موجات عالية من العويل الأخير. تماسكت أن تبكي.

إنحنى الرجال على الجسد الملفوف بالأخضر بعد أن غطت النساء الوجه. شعرت بأنك تمزق بسكين هوجاء تختار منك مواضع الألم لتعمق فيها الطعن، كشفت عن الوجه رأيتها: عيناها اتسع شقاهما ليكشفا عن اتساعهما، والفم ينم عن سلام ساكن، والوجنتان عاد إليهما رونقهما، وشعرها الملتمع تناثر أعلى الجبين: استيقظت، ما أروع الحلم الذي أنامك.

جذبك الرجال بلطف حزين وطلبوا ابتعادك قليلاً. نفذت وأنت تنظر إلى وجهها الذي يصحو. غطوه. أفقت من غفوة مباغتة والجسد في الحفرة يهال عليه التراب. كنت ما زلت تنظر إلى الوجه الذي عادت إليه ملامحه.

عاد الجمع وعدت معهم تحاذيك المحتشمة والعنزة الرفيقة. سمعت المرأة المحتشمة تتحدث بغصة: «قلبي

مسحوق عليك. آه ذهبت وأنت في عز شبابك طواك التراب وسيأكلك الدود. مسكين زوجك الذي يحبك كيف ستكون حياته بدونك؟. يا رعشة الحياة الجميلة التي كانت، يا من أبدع الخالق في تكوينها. . ما رأيت امرأة تفوقك في جمالك وأخلاقك يا حبة العين. يا بهجة المال والبنين. . يا. . يا».

- «لماذا طواها التراب، ولم أقفلتم عليها الحفرة الضيقة؟».

- «إنتهى أجلها. خرجت روحها كطائر عظيم أبيض خرج من أنفها. . كانت في حضني عندما فارقتها الروح. . ارتعشت ثلاث مرات فخرج الطائر. . ».

- «جميلة هي، أشبه بطائر يسوق غيمة».

- «زوجتها بنفسي، اهتممت بها ليلة زفافها، كانت مزينة بلا زينة. فتن بها زوجها وعاشا حياة هادئة وجاءت بطفلين رائعين، امرأة طيبة تحب الناس ولا تخالطهم. مهتمة اهتماماً أمومياً، إلى أن ماتت فجأة ونحن كنا نتجاذب أطراف الحديث. . آه».

- «أنا لا أخالط الناس، ليس لأنني لا أحبهم. . بل أنني أدهش بحبهم، لكن أقضي وقتي بين الكتب والقراءة والرؤية. عندي غرفة صغيرة تعيش فيها الفئران والكتب واللوحات التشكيلية وكتب. أكتب وأخبىء ما أكتب بين ملابسي».

- «يا حبيبتي، ذهبتِ، الحياة فارغة بدونك، تركت

طفليك أحدهما يحمل عينيك والآخر قسماتك الواضحة ولون شعرك. لا أعتقد أن هناك امرأة تجاريك.. ماذا أقول عنك؟ طيبة نعم، لم تشعري أي أحد بغصة قهر أو بكاء. جميلة، بل رائعة، النساء يتحدثن عن صفاتك، صدرك ميدان حرب متأهب، شعرك نهار بلا شمس، قوامك نخلة أنثى عطوفة. حفظت بيتك وزوجك.. زوجك جلب لك قلبه وذهنه ومجوهراته وملابس خيالية لم ينقصك شيء».

- «كاملة».

- «ماتت».

- «آه.. حدثيني أكثر عنها.. لون عينيها ومساحات شعرها وكيف يتسق بغزارته مع خطوها».

- «عيونها مساحة عميقة في الليل، وفي الشمس طائر شاخص للبعد، خطوها كحمامة تخزها الأرض الملساء. الهواء يجلجل أثناء حركتها بدوامات من الرائحة الموسيقية».

- «ماذا تحب من الألوان؟».

- «تعشق الأزرق، وعندما تلبسه أرى أمواجاً تترى متزينة بامرأة تعبر الندى».

- «هل تحب زوجها؟».

- «كانت لا تشكو من شيء ولا تخرج من بيتها».

- «أنا لم أتزوج».

ـ «قلبها رقيق كنسيج العنكبوت. ضحكت عليها قبل يومين عندما اصطادت فأراً وخلصته من الموت».

ـ «آه. . .».

ـ «تحب القراءة كثيراً، تجلس مع أطفالها وكتبها معظم الوقت».

ـ «تقرأ». .».

ـ «كثيراً وتحدثني عما تقرأ، وتعشق لوحة امرأة نحيلة تحمل نفس قسماتها».

ـ «آه. . .».

ـ «تكتب وتخبىء ما تكتب بين ملابس أطفالها».

ـ «ملابسهم. . آه. . حدثيني أكثر».

لم تسمعك المرأة وأقفلت الباب في وجهك بقيت مع عنزتك إلى أن خرج القمر محمراً بشع المنظر. سألت عن البيت. . قالوا لك لا يسكنه أحد، نظرت إلى عنزتك وتشاورتما على الرجوع.

رجعت إلى الحفرة تنظر إلى وجهها النائم وأنت شاخص إلى القمر المحمر وشعور هائم يقبض قلبك المنسجم.

العرس ...

حمامة، ذاكرة البلدة البحرية، لا تنساها ما حييت. وعندما يتماوج اسمها مع هبات النسيم البحري، تنعقد الأفئدة وتنحني البلدة بمن فيها وما فيها كما تنحني نخلة.. ويسري «العرس الأبيض» بدمه الحار في خلاياها وتقبض النساء كل النساء قلوبهن ولعاب اللذة الجارف يلهب أعماقهن بوقع موسيقى تحليق حمامة القاسي.

حمامة كانت من نساء البلدة اللواتي يلاحقهن سوء الطالع، امرأة لا تكاد تفارقها رائحة الرماد كطيور مغمضة الأجنحة.

حمامة تزوجت للمرة الأولى عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، وفي نفس الليلة خرجت من بيت الزوجية. فقد جزعت من الرجل الذي أراد أن يشاركها الفراش دون استحياء، فاجتذبت سكيناً من المطبخ وظلت متحصنة بها زمناً ثقيلاً.. ثم غافلت نفسها وهربت مع طيات القدر وهي محمومة بالصورة الجزعة (صورة الرجل العاري). حملت كابوساً وبكت أمام شجرة يتيمة إلى أن قام الصباح المشرق

الذي حفل بالأطفال الأشقياء يلعبون في السكيك مع زخات الضوء والانفلات. . . . . رجعت حمامة إلى قلبها الصغير وطيرته في السكيك يلعب مع الحجارة والحشرات والأطياف البريئة.

أخذها أهلها في الليل التالي إلى عريسها الموتور. انشق قلبها في الظلام وانفجر دمها عصياً ساخناً. هربت مرة ثانية ملطخة بالجزع والجرح الأسود والألم المبهم، وفي الصباح الثاني عادت تلعب بثيابها الحمراء الممزقة. أرجعها أهلها إليه فعادت إلى اللعب.. نصح الأهل العريس أن يلعب معها، وعندما مارس اللعب الدنيء أمسكت السكين وغرستها في المجهول وصاحت متوسلة بين رجليه «أتركني ألعب مع الرمل والهواء» سكت قلبه جبناً وناولها الورقة وأغلق الباب عليه فأراً يرتجف .

في الصباح الثالث لعبت حمامة مع الغبار، وفي الليل التالي زوجوها إلى رجل مطلق بعد أن أشبعتها جدتها حديثاً عن الزواج والعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة التي يترتب عليها إنجاب الأبناء الجميلين. وكان زوج حمامة الثاني نوعاً غريباً من الرجال فحمامة لم تستطع أن ترسم له صورة متكاملة في ذاكرتها لأنها لم تنظر إليه في سكون بينهما. . . كان يعلقها بالسقف ثم يعريها ويدور حولها كثور هائج يرى الأحمر. يرقص حتى تقفز عيناه من محجريهما وتصعقه النشوة ويتناول سوطه ويضربها ضرباً مبرحاً يتقطع فيه فؤادها قطعاً مفتتة كأنها أذيبت في النار السائلة، ويتلذذ بها كبهيمة متوحشة إلى أن تهدأ

نفسه فيسجنها في غرفتها لكي لا يراها أحد ولا تطالع أي أحد ويخرج هو إلى سمره وشربه. . . ويعود محملاً بالرغبة في قضمها معلقة مضروبة.

بقيت حمامة هكذا لا تعرف الليل من النهار والغد من البارحة. . وذات حزن شديد الكآبة فرت إلى الشارع وبقيت جالسة على حافة الخوف تحضن رأسها بصمت. . . إلى أن جاءها قرارها: مطلقة لخروجها ومعانقتها لليل.

بعد سنة أخرى جاءها خاطب من بلد آخر غنياً كان، وبسرعة متناهية تم عقد قرانها عليه وحملها وذهب بها إلى بلده . وهناك سكنت قصراً مليئاً بالجواري والخدم والحشم وضاجاً بخرير الماء ولمعان الرخام والمذهبات .

حمامة كانت مذهولة مما ترى وكانت تظل تدور في القصر كحمامة تدور حول طيرانها، والدهشة تزداد يوماً بعد يوم مما تراه. وكانت نتيجة الذهول بنتاً جميلة ولدتها حمامة. وعندما تشقق بطن حمامة بعد الحمل لم يحتمل الزوج تشوه بطنها المدور وفخذيها فجلب عليها زوجتين أخريين.

تزوجت حمامة للمرة الرابعة، واحتفلت البلدة احتفالاً لا نظير له بالمناسبة الرابعة فحمامة لم تفقد ورقتها الزواجية بعد. . . الزوج الرابع أحب أكل حمامة فكان يقضي كل وقته يأكل. وسمن إلى درجة أنه لم يستطع أن يغادر غرفة نومه. . . هربت حمامة وطارت إلى بيت أهلها منهكة القوى.

الخامس، كان زوجاً قذر البدن يحمل رائحة تيوس

وخرفان. حملت منه حمامة وأنجبت بنتاً. لم تحتمل حمامة زوجها الخامس الذي كان يراها عشباً مترامي الأطراف يتوسد طراوته وينفث رائحته القذرة فيه. رجعت حمامة إلى بيت أهلها وهي شبه مريضة، ضعيفة الحركة، ضعيفة التمسك بالأشياء حتى ابنتها كانت تنظر إليها باندهاش ميت «كيف أسعفها الوقت أن تنجبها؟» .

دخلت حمامة حالة من الكآبة البشعة، فكانت لا تقدر أي شيء أو تعطيه حساباً أو وزناً، وانزوت إلى نفسها لا تعايش الناس ولا تزور أحداً ولا تتحدث مع أي أحد حتى أهلها وابنتيها. كانت تتمسك بالماء والقليل البائس من التمر. جسدها ضمر أشبه بضمور حيوان جائع شاحب ولم تبق منها إلا عينان لا مباليتان حتى لمجرد النظر... كانت حمامة تخالف النساء في مواعيدهن، تبقى طول النهار منصبة في النوم الذي يشبه الغيبوبة وفي الليل تجاور الظلام وجدار السرير وتسلط عينيها على فراغ يتقافز.

لم تكن حمامة تملك القوة لتبكي. بالكاد تنهض لتشرب الماء وتبقى في لا مبالاتها العذابيّة بكل شيء. كل شيء إلاّ رجع نفسها المتردد الذي يعطي الإيحاء بأنها حية ترزق. نفسها أقفلت عن أي صراع أو حديث أو تذكر ما... إلى أن صارت حمامة في عداد الأوراق الساقطة من شجرة البلدة.

عجز أهل حمامة عن مداواتها.. أتت أمها «بمطوع» معروف في البلدة قرأ عليها آيات من القرآن الكريم... ثم

خرج باستنتاج لأهل حمامة بأنها مسكونة «بجني» سلب روحها وهو السبب في فشلها السابق ومرضها الآني وسوف يقضي على قادمها المستقبلي . . . بعدها قام المطوع بضرب حمامة «بخيزرانة» لكي يخلص روحها وجسدها من الجني . . . ضربها على رأسها وصدرها وبطنها وظهرها وأسفل قدميها وظل على هذا المنوال أسبوعاً كاملاً وهو يجرِّح جسد حمامة الضامر، لكن حمامة بقيت تنظر إلى الجدار بعينين زجاجيتين تلمع فيهما الكآبة الباردة.

بعد حين جاءت حمامة امرأة عجوز تحمل ميسماً من الحديد وضعته على فقرات حمامة الظهرية فخرجت رائحة لحم يشوى . . وبقيت باردة . دخنت حمامة «باللبان» ورشتها أمها بالملح لطرد جسد أتاها من نفس شرير . . . وآخر المطاف سحبوا حمامة إلى طبيب البلدة الذي نصح لها ببعض المقويات لأن دمها كان في لون القار بدل أن يكون في لون وجه فتاة خجولة، وبعد أن بلعت حمامة المقويات لم تزايلها غيبوبة الكآبة .

وكان ذلك اليوم الذي قامت فيه حمامة معذبة مجلودة متحايلة على نفسها وطافت البلدة وهي تطلق صفيراً قاسياً : «العرس الأبيض . . العرس الأبيض . . »

طرقت الأبواب والنوافذ وعبرت الطرقات والمؤسسات إلى البحر . . حتى أيقظت فضول البلدة لتجري وراءها وسط دوائر لهاثها . . في ذلك اليوم الذي نهضت فيه حمامة كانت البلدة

مليئة بصحو غريب، السماء كانت صافية وكان حمام كثير يحلق في الأعلى ويسد منافذ السماء والبحر كان هادئاً ومليئاً بزبد أبيض ونخلات البلدة لم تكن تحمل ذرة غبار وحتى عيون أهل البلدة كانت متيقظة، فعندما نهضت النساء من نومهن أتاهن شعور أن البلدة ستشهد عرساً.

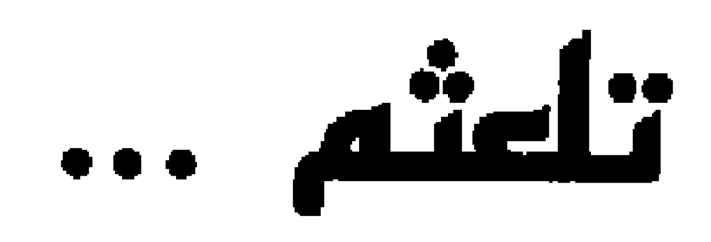
حمامة في طرقات البلدة كان يسبقها «العرس الأبيض» الذي ترمي به من غبار نفسها الموجوعة.. كانت تلبس ثوباً أبيض كلون محاره، عيناها تملأ نصف وجهها الشاحب اللتان ظللتا بدوائر العتمة المرضية. وتدافعت النساء تضرب أثداءهن بعضهن البعض، في حين جرى الرجال خلف النساء.. كل البلدة تجمعت حول حمامة واتصلت بها اتصالاً كبيراً كأنما كل أجهزة حمامة الحسية توزعت على كل فرد في البلدة، وكان العرس الذي تذكره حمامة يراودهم وهم ما بين التصديق والتكذيب، فهي المريضة المحسوبة في عداد الأموات قامت وهي تعلن العرس وتسأل الجميع عمن أيقظ حمامة أو من سيزف نفسه عريساً لمحروقة في كل أجزاء جسدها والديدان تملأ دمها. ولم يتمالك الناس أنفسهم من التحري المتناهي السرعة.. من يزور حمامة أو من شاهدها تخرج إلى لقاء بحري أو من من الرجال نظر إليها لكي... وكانت حمامة بيضاء وجهها يشبه الحجر الحليبي الذي تغسله المياه وعيناها صدفتان منطفئتان ذاهلتان ما بين الحزن الأسود وانتشاء فرح الناس، وكانت تهدل «العرس الأبيض».

ضاقت حلقة النساء عليها بينما وجه حمامة نخلة مبللة

بالدموع الإشراقية ولم تكف عن حضن نفسها كحمامة وتستغرق في دفئها الداخلي وسط الضجة الخارجية وعيناها تدوران دورة منتزعة إلى لا مكان ولا رؤ ية ولا زمن.

وبلعت النساء ريقها وانتابتهن غبطة العرس الذي فاجأهن، فغنين العرس ورقص الجميع حتى تبللت الأجساد بالعرق، وزاد قرع الطبول وصفق الأطفال ومال النخل يتطاوع يمنة ويسرة يسطع باللون المنبعث من عيني حمامة، لون اللا شيء ولون التقاء الجسد البارد بالرماد.

تهيأت النساء لزف حمامة، وكانت حمامة امرأة تشبه القطن تحلق حولها كائنات لا ملامح لها وتغني في أذنيها أغنية التحليق. دفعت النساء حمامة للوقوف فقعدت وهي تستغرق في العرس الأبيض. جئن لها بعريس وجدوه ينظر إلى حمامة بعينين ملؤهما الحنان، زينوه وجردوه من ملابسه ليزف إلى حمامة.. وصرخن «إن عريسك ينتظرك على أحر من الجمر» هرب الرجل. تعالت ضحكات النساء تحت تأثير الغبطة.. غبطة العرس، فسحبن حمامة من شعرها ولم يدركن سقوط شعرها بين أيديهن... سحبنها، من يديها، من ثدييها، من أصابعها، من قدميها، من قلبها.. ولم تدر النساء حقيقة ما جرى تحت تأثير اللعاب الحارق الذي سال منهن إلاّ وحمامة تحلق وتصفق بجناحيها في آذان الراقصين والراقصات.


تتمة ...

. . لقد أتيت لك بشمعة تنيرك لترين نفسك وأن تفتحين الدائرة الحمراء، لا تتألمي، حاولي مرة أخرى. . لقد بانت الدائرة، حاولي معها، اجعليها تتسع، احفريها. . على البحر أغرز أصابعي في الرمال الشمسية فتنفتح دائرة مائية أغوص داخلها وأتبلل بالرمال والمـاء. . . لا تقلقي بشأنهم لقـد أحضرت صندوقاً جميلاً لكي يناموا بعد خروجهم من الدائرة.

. . . أتوسل إليك حاولي، بدأت تكبر الدائرة وخرج منها المطر الأحمر. المطر. . عندما أدخلتني أمي غرفة المطر قالت لي: «كوني لامعة مثل قطة نظيفة. . ولا تنسي أن تدعكي شعرك» وهطل عليَّ المطر الأبيض فطارت مني الفراشات والفقاقيع التي تشبه لون القمر النائم في الشجرة. . وصعدت داخلٍ الفقاعة ذات الألوان التي تجعل عيني لا تستقران ورويداً رويداً كما تتسع الدائرة حللت على جناح نورس ودخلنا السماء البعيدة. جلست أمام نجمة حلوة تسرح شعرها في الليل. . لا تبكي بصوت يشبه أكل الزجاج. النجمة أجلستني بقربها. نعم. فلمع وجهي حتى اصطدمت بالبحر وركبت موجة علت وهبطت فعلوت وهبطت وكان قلبي يعلو ويهبط، دخلت الغيم

والضباب وهبطت في حفرة الماء والرمل وعندما خرجت من غرفة المطر، احمر وجـه أمي حتى صار مثل حبة الطماطم المتفجرة. . «لم أدخلك الحمام لتغسلي جدرانه» ودخلت مع أمي الحمام ودعكت جلدي بليفة حارة حتى قطر الدم من جلدي وخرجت شرارات مؤلمة من عيوني. . أعلم أن بطنك كبر وصار مثل بالونة حاولي كالمرة الماضية أن يخرجوا من الدائرة. . ما بال عينيك مثل النار أطفئيهما ونكتفي بالشمعة. آه لقد انطفأت الشمعة سأشعلها لكن أطفئي عينيك ستنتبه أمي إلينا وستفعل بك نفس ما صنعت في ذلك اليوم الذي لونه في لون عيوني القاتمة. . لا تعوي حتى أن جدران الحجرة تهتز. . لا تبكي. . كنت أخذتك في خيمة ذراعي وجرينا وراء أمي وكان صغارك ملفوفين في كيس وعندما قذفت أمي بهم بعيداً عن البيوت، جئت بهم إليك وخبأتهم داخل فراشي وعندما أفقنا لم يكن في الفراش سوانا بكينا وكان أنينك يغلب عرق عيوني. . كنت كأنك تأكلين الرمل.

أنت مبللة كأنك تحممت تواً، عيناك تتمددان، المطر الأحمر يندفع من الدائرة، رائحتك تشبه رائحة سمك. . أبقي مكانك لا تزيدي من حركتك داخل المكان، ستنتبه أمي وتأتي الينا وتعلمين كيف تتحول عيناها ووجهها ويداهـا عندمـا تغضب، سترميهم خارج البيوت.

إهدئي وسيخرجون، أنت متلهفة أن تريهم أن أشكالهم قبيحة، قطع لحم كالذي تطبخه أمي، ويخرجون وهم غير فرحين. انهم مخيفون.

تعالي بجواري، اهدئي، اهدئي، هاتي رأسك المجعد بين يدي آه... آه لا تقبضي عليّ بأظافرك، توجعيني، هل أنت موجوعة لهذه الدرجة، ها قد خرج أحدهم، أنه يئن مثلك يدور حول نفسه وسخ مليء بالمخاط، سآخذه إلى غرفة المطر وأجعله نظيفاً سعيداً، لن يئن بإزعاج كما يحدث الآن... المطر، أجري في الطرقات وأمي تلحق بي والمطر يرفعني وأصبح حمامة بيضاء، أضرب المطر بجناحي أسمع موسيقى جرس يلحق فرساً يجري مع المطر وسط رمال بيضاء وأنا أركض خلف الفرس، الأشجار تركض وأنا أجري والفرس تجري والسماء تجري وقلبي يجري، أمسك ذيل الفرس فتقبض أمي على شعري وتجري صوب نار قلبها «لن تلاحقني الكلاب بعد الآن أيتها المجنونة».

قلت لأمي: «اتركني أجري خلف الفرس»

أخذت أمي شعري وربطته في قفل الباب «كلماتك غير واضحة لي... متى سينطلق لسانك الأعوج..»

أليس حديثي واضحاً لك، أشعر بالإرتياح أنني أقول لك ما أريد وما أود أن أغرد بشأنه.. ربما أمي لا تسمع ما أراه لو تسمع أمي.. لا تصرخي، ليس بكاؤك ما أريد أمي أن تسمعه. لكن ما تقوله الأشجار والهواء والغيوم والطيور والأسماك، أمي تعتقد أنني لا أتحدث جيداً لكنني أتكلم مثلك... مسكينة أمي لم تجرب أن تركب ظهر نورس وتصعد.. عندها ستسمع ما أقوله وستتضح كلماتي لها...

لكن أحقاً كلماتي غير واضحة.. آه.. آه إن عينيك تزدادان لمعاناً مثل شمسين حمراوين، إنهما تطفئان الشمعة التي تجعلني أراك.. ها قد خرج الآخر مليئاً بالمخاط ومطر الدم يتلوى مثل أخيه ويدخل بين رجليك برأسه. آه يبحث عنك مطر الدم ينهمر منك، أنت مجروحة سأحضر لك دواء الجروح لكي يخفف عنك الألم، ما زال في بطنك بقية.. ها هو الثالث يندفع، الرابع الخامس.

قطع من اللحم الأحمر تتلوى بأنين تبحث عنك، ضعي رأسك في يدي، اصمتي عن التوجع، لقد خرجوا كلهم، سأبدأ في تنظيفهم في غرفة المطر، سيدق رؤوسهم العارية بموسيقى الجرس المعلق في رقبة الفرس الراكضة، سيصعدون على ظهر الموجة، ستعلو وتهبط بهم تعلو وتهبط وسيجلجلون بالضحك مثل النجوم... لكن المطر يخرج من لسانك، أنت متألمة وتحضنيهم بمطرك وهم الأغبياء الصغار يعتقدون أنك ستأكلينهم ولا يكفون عن المواء... ماو.. ماوو ووو... ولا يكفون عن الصفير الذي يخرق أذني أشبه بالصوت الذي يصدره الليل عندما لا يتحرك فيه أحد، صوت لا يدعني أنام وأشك أن النجمة الواقفة عند نافذتي تبكي.. أنظر إليها فأراها تتقدم وتتأخر... أقول لها تقدمي ولا تتراجعي.. وأرقب كل الليل فأسمعه يصدر صوت تقدم وتراجع نجمتي وعندما أجلس بجانب زهرتي القبيحة التي لونها في لون التراب المغبر يتبدل بكاء الليل إلى ضرب يشبه صوت ابتلاعي لطعام حلو... أنظر إلى زهرتي فأرى لؤلؤاً يعزف

على وجهها القبيح فيصبح لونها أبيض مثل الرقص. . وأرى وجهي في عيون زهرتي الكثيرة الدوائر فأضع رأسي عند زهرتي وأطير وعيوني نائمة .

«ألا تنامين في غرفتك؟، ليت لسانك ينطلق. . . يا. . . »

يبكون. ألم يعجبهم مكانهم الجديد؟ أنهم يتلوون نحوك، هل رغبوا في العودة داخلك؟ لتقفلي الدائرة لا تتركيهم يفعلون ذلك. . . آه ربما شكوا أن أمي آتية لتأخذهم لا. لن تفعل ذلك، تأكدي وطمئنيهم، سنخبئهم أنا وأنت في مكان لن تشم أمي رائحتهم. ماو ماو وو ماو اسكتيهم، أصواتهم تجعل قلبي عصفوراً يصطدم بالقفص كعصفورنا المسجون في حديقة البيت ماو وو وتبكوا، يا لجلودكم النظيفة الحارة، سأدخلكم في قلبي، تعال اقترب، قلبي، قلبي حجرة مليئة بالطيور ستلعب معها. . الطيور تغني ولا تبكي. . ما بالك غاضبة، لن تشاهده أمي في يدي. . ما بالك تصيرين كرة، أتودين أن تلاعبيهم بنفسك، لكنهم لا يرونك وأنت كرة، عيونهم مقفلة. . . آي لماذا يدك تخدش يدي. . آي جعلته يسقط، أنه يبكي بألم زائد، لم أنت قاسية. . تعال إلى يدي. . آي لماذا أسنانك تدخل في لحم يدي. . آي إن مطر الدم ينفجر من يدي، لقد وقع مرة أخرى من يدي ويدور حول نفسه. . . . تعال إلى. . . آي لا تعضي يدي وتنفخي في وجهي، لا نار في وجهي، أتودين أن أحملك، لكنهم صغار يريدون أن أسليهم، تعالوا إلى حضني سأحكي لكم عن زهرتي القبيحة، أنها جميلة بها مئات الأجراس. . أي لماذا تمسكين يدي

بأظافرك الطويلة غير الرحيمة، أنت تنهشيني.. أي إن مطر الدم يخرج من وجهي ويدي وقدمي.. ماووو ماو، أنت تخيفينهم وتخيفيني.. تعالي، تريدين أن تنامي بدلهم في حضني لكنك لا تتحولين عن شكل الكرة... ماذا أصابك، أنت لا تسمعين مثل أمي لا تسمعين ما أقول آي آي آي ماوو ووو آي آي، إن مطر الدم يجعل مطر عيوني ينزل ولا أرى شيئاً، إن أسنانك التصقت بلحمي، أنت لا تقبليني مثل كل مرة وتدغدغين باطن قدمي وتجعليني أصدر موسيقى من قلبي حتى تصل الموسيقى إلى زهرتي القبيحة فتنفجر بالضحك.. ماو ماو وو إنهم يزدادون بكاء وعرق عيوني ينهمر حاراً، إنني أشعر بعدم قدرتي على الضحك، سآخذهم عنك إلى زهرتي لعل وجعي وأنينهم يذهب عنا.. أخرجي أوجعتني، وأخفتهم، سأذهب بهم عنك.. اصمتي إن صوتك المخيف يهشم عظامي.. سوف لن تريهم لأنهم سيحبون زهرتي ولن يقبلوا أن يأتوا معك.. هذه زهرتي، انظروا إليها ترقص مع القمر، أنتم لا تكفون عن البكاء... أنت تلاحقيني، ما زلت كرة تنفتح.. لا تقبضي على لحم يدي ورجلي.

ستنامون بجانب زهرتي في الدائرة.. أغرز أصابعي في رمل البحر وتتكون الدائرة المائية.

«ستنامون في الحفرة بجانب زهرتي وستتلحفون بالنجوم، لا تقطعي أصابعي لقد سكتوا... ناموا... غداً سيخرجون زهرات خمس لا تموء بل تضحك مثل السكر.

لا تموئي عند قدمي بصوت يشبه الدق على الجدار كذلك اليوم الحزين عندما جرينا وراء أمي . . . لقد سكتوا. غداً سيخرجون من الدائرة زهرات خمس لا تموء.

ماو وو ماو وو آي آي لا تجرحيني، إن المطر الملح يبلل مطر الدم.

لقد سكتوا . . . ناموا

ماو وو آي آي

«تعالي ننام في الفراش»

في الصباح وجدت الأم ابنتها الشابة نائمة وهي تحضن قطتها الميتة تحت ظل زهرة مخلوعة وفي التراب تنام خمس قطع لحم باردة.

قيس هوى ...

قرر الكلب «قيس» أن يحب ممهداً لزواج أنيس، وقد وقع اختياره على حمامة الجيران. قيس قتلته الوحدة في شرفة معلقة بين السماء والأرض فصاحبته عجوز أودعته العزلة مع القليل من الماء والزاد.

لم يكن أحد يكلم قيس ولا أحد ينظر إليه ولا أحد يفتح له فسحات الروح، ينطفىء على قائمتيه يكلم كائنات الذهن باللاشيء إلى أن مرت حمامة الجيران البيضاء على الخاطر فقرر بعد حديث مع النفس متأنٍ في ليل أبيض أن يحبها ويبثها سحر الإرتباط الثنائي الروحي.

بعث بالإشارات الأولى نباحاً ودياً ناثراً فيه بقعاً موسيقية لفتت انتباهها. أرسلت إليه نظرة حنونة. طارت وحلت على مسند الشرفة. تأملها قيس... إنها أبلغ من أن يعبر عنها عيناها باحمرارهما اللطيف مثل شعلتين مغموستين في حلاوة الرّطب ورشاقة قدها وقدماها القانيتين.

نز فرحاً من شقوق الروح الأشد قتامة: امرأة أشرقت من باطن المخيلة لتستقر في قلب تتلاطم فيه وحشة بحر.

تناول عينيها وغناهما. تناول يدها وضمها في دفء غابة غامضة. قرب إليه فوحها فعلقت في الذهن بتنميلة ممغنطة تسيره كمجنون في طريقها كلما اتجه اتجاهاً غير اتجاهها.

بادلته حباً بحب.

بعث لها رسائل الكلام والرؤى واللحظات النادرة والمحطات المقابلة بين روحيهما. بعثت إليه بوجه العملة ذاتها.

عزف رسائل الحب في هواء نعسان:

«يا سماء مقلوبة في مرآة.

يا ترنيمة مشبوكة في النطق.

يا كلام يخاصم مخيلته.

يا مطر مقلوب على قلبه.

احرقيني بخوراً في ثيابك.»

صار قيس كلباً لا يشبه الكلاب... عيناه تحولتا تحولاً قاطعاً إلى عينين وسيمتين. إنه كائن آخر، كيانه تطوع بالاستقامة والظرف والمحيا الشهابي، يداه تغلغلت فيهما حرارة باردة حرّى.. أصبح فضاء روح تشرق بالحب ولا تغرب. تتقلب ذات اليمين وذات الشمال بغناء هز أعطاف الأيتام والميتين، الغرقى والمتعطلين، وزار الأسرة الحريرية ولفح وجه النعومة الرياشية: حبه تحول إلى مثال يسكن البؤر الضوئية النادرة في كل جدار وشجرة وهواء.

في شق الباب حمامة تنفض الهواء.

من بقايا الذاكرة.

والكثير من الوحشة.

والشديد من الهوس.

والأعمق من الصور.

والمتداخل من الأرواح.

تحني عليه الشعر والرؤ ية والبصيرة.

تضمه في نقطة القلب.

في شق الباب الموصد.

في النافذة المغلقة.

حمامة.

في ذبالة الضوء.

يمامة.

في قعر الحب.

امرأة.

فاتح قيس حبه بالـزواج وافقت. تكلما في تفـاصيل الارتباط اختلفا، تخاصما. لعنا بعضهما. شتما اللحظة التي جمعتهما. مزق قيس رسائلها وصورها ورماها في المرحاض

وأشعل الأغاني الحزينة التي تعالج الحب المفقـود. هي أمسكت كلماته وخنقتها بكلتا يديها إلى أن أزالت منها الحياة.

بقيا وقتاً يغليان تحت نار التوتر. كرها بعضهما وتصورا لو أن أحدهما رأى الآخر لأصاب منه مقتلاً.

وحين التقيا خلسة، استنفر الحب أكثر مما سبق. ضم قيس العينين السوداوين وشتتهما في أخاديد الشوق. يا امرأة لا تغيب إلاّ بغياب الحياة.

عاد قيس أجمل مما كان. نحف نحافة جميلة زادت من حسنه وأضافت إلى جلال هيئته قدراً من الصمت الحرون. أصابعه اشتدت اشتداداً وترياً رهيفاً. عزف:

وردة مبقعة بشرارات وحدتي أعطيك.

فراشة تحوم حول مقتلي أهديك.

ظلي المقتلع من شبحي أهبك.

جرحاً من ألمي أمددك.

«أنا» واهياً مثل غيرة أبيعك.

لتغمسيني في لهفتك.

يا جنون هوسي.

عاد الحب أشد حرارة مما سبق ولم يعودا يفكران في زواج... فقد تزوجت روحهما.

أفـاق قيس ذات ليل فلم يجـد حمامتـه في النافـذة الموصدة. انتظر عودتها أياماً وشهوراً وسنوات سوداء.. فلم تعد. غابت مع الكثير من الشائعات: هربت مع عشيق.. تزوجت. سافرت. تبدلت. سمنت أنجبت الأولاد والبنات.

لم يستطع البحث عنها ـ لأنه بكل بساطة ثقل تحت وطأة حبها حتى أن نفسه كان أشبه بسلسلة تسحب روحه وتقيدها. لم يكن يقـوى على القيـام أو الجلوس، النوم والاستيقـاظ، التحدث والكلام.. كله صار سيان، وفسحة الروح صارت مخبوءة في حزن بارد وعاصف.

حلم أنه يراها قادمة برائحتها الممغنطة وتحـل على قائمتيه . شم عصفها... رأى عينيها الغامضتين . لمس نزف أصابعها . مرر دفئها على وجهه .

قام مستقيماً قوياً . طارت . تبعها طائراً سعيداً غامضاً . سقط في ليل معدني .

أفاق في بيت الموتى . كانت هناك نائمة في عرش الزهور وثمة ثقب محفور في موقع القلب أحمر قاني .

أراد قيس الموت لكنه لم يستطع أن يموت . روحه ثقيلة ، نفسه حجر ، النوم والاستيقاظ الكلام والحلم.. كله سيان .


غياب ..

مدخل:

أخذتها المعلمة إلى البحر لتريها العميق. شرحت لها تفاصيل الماء وأحابيل الغامض واستبداد المغامرة.

امتشقت نفسها الطفلة العذبة كضيـاء صارية مزبـدة كسيف معشوق من شموس.. شقت عباب الماء ولوحت لمعلمتها بفكرة مطوية، قالت، وهي تتوارى في حجم موجة مفترسة: سنلعب معاً.

اختفت ولم تعد تراها المعلمة.

بحثوا عنها في كتل الموجات السارحات كعذراوات يرعين سلسلة أحلام ذكورية.

بحثوا عنها في بطن السمك كجوهرة شاءت أن تتكون في خفايا الظلمات.

بحثوا عنها في حبات الرمل وإيقاعاتها وتلألآتها... ولم يجدوها.

وعندما سألت التلميذات، قالت المعلمة:

إنها جد سعيدة لأنها حقاً تلعب.

□□□

لا أستطيع إلّا أن أستسلم لرغباتها، تحيطني بها كشباك صياد أعمى لا أملك حيلة للتخلص من تعقيداتها. سحبتني إلى البحر، مدت نفسها إليه، قالت لي: «سأبحر» ثم تناولت محارة مرمية على الرمل المسترسل في كثافة اللمعان وخلب الألوان. . . أردفت «سأبحر في هذه».

ـ ليت أمك لم تلدك.

ـ أريده شراعاً مثل هذه المغلقة المطبقة على ذاتها، لا يدخله هواء ولا تلامسه نجوم ولا يحرقه قمر عطشان، الأسماك من بين يديه، ومن خلفه لا تجري الطيور.

ـ إنه سجن.

ـ سأبحر يا أمي. . .

ـ أين؟

ـ أين. . . . لا أدري أين.

ـ ألا ترحمين أمك الشقية؟

ـ أبغي السعادة.

ـ السعادة!

لم أطـق حزنها لرفضي، فقد كانت تحزن حزناً يشق نفسي ويشطرها إلى شظايا من الخوف الغامض. . . جهزت الرجال والمال، بنوا السفينة أشبه بجزيرة محبوسة من كل الجهات. أطلقوها في الماء. انسربت إلى الداخل كفراشة تعانق سكرها. . . قلت لنفسي: هدفهـا السعادة، ليكن. وشيعت قلبي معها. رأيت الشراع يغيب ويقترب من رؤيتي أشبه بحبل صامت تطويه رمال لا حياة فيها.

ليتني لم ألدها، أثقلتني بالهموم كبيرة وصغيرة. . . ولم أدرك ماذا تريد أو ماذا ترغب أو إلى ماذا تهدف. . تظل تحوم مثل طير ملسوعة رجلاه أن يقف على الأرض، أو مثل قلب يلبط في غير هواه. صغيرة لم تكن تقبل أيّ حضن، تنفلت مني مثل عاصفة صغيرة. تهرب في كل مكان وفي كل وقت وإذا جاء موعد نومها أطبقت عليها برجلي وأرقدتها لكنها لا تهدأ، تعصف مع أحلامها وتقوم سائرة وراءها وأصبح أنا أشجارها التي تتسلقها ورمالها التي تحفرها وسماءها التي تحلق فيها. فإذا جاء الصباح ركبت حصان حركتها وانساقت إلى تلال هروبها. أفقدتني عقلي أثناءها، يا لها من شيطانة صغيرة مشتعلة بنيرانها التي لا توصف.

تبحثين عن السعادة، لم يا حبة فؤادي؟. ألم أحاول اسعادك، قرصت الظروف من أذنيها لأقدم لك السعادة على طبق ـ هو قلبي. لكنك تنزعين إلى الهروب، وعندما وجدت الهروب هو غايتك، أسكنتك الساحات وأطلقتك مع الرياح

وفتحت لك أبواب كل شيء يسعدك. لكنك لم تهدئي، كنت جمرة لاهبة تستشيط من القبض، وعندما أشملك بماء رحمتي تجفلين مثل قدر غريب شق تباريح الليل.

أقرانك لا يعودون، أصدقاؤك تأخذينهم وتنزعين بهم إلى الخروج، فإذا عادوا لم يعودوا مثلك ناصعة مثل زخة ورد صباحي.. يذهبون إلى أمهاتهم مسحوقون، وعرائسهم الجميلة الممزقة، ويتهمونك بأنك نمرة متوحشة، لعبك عراك، وفرحك يحطم كل ما أمامه، وهزلك مغامرة مميتة.

وعندما كبرت قليلاً لم أزل أحاول أن أطوعك مع الضرورات. كنت أرقبك وأنت تذرعين المكان ذهاباً وإياباً، بدل أن تكتبي دروسك كنت ترسمين ثم تمزقين الألوان، وبدل أن تكملي أكلك تذهبين لملاحقة الشمس وتدعين أن النجوم تسابقك، وبدل أن تهدئي في نومك، تكلمين نفسك بصوت عال ويكون خليطاً من الإشكالات والصور المتضاربة واللغة العصية... في أي يوم نحس ولدتك؟.

وإذا ذهبت بك لنستمتع بحضور بحر رائع أو مغريات عصرية، كنت تقذفين البحر بالأحجار ولا تتوقفين إلاّ بعد أن أسحبك.. أما مغريات العصر فكنت تبكين شفقة ورجاء لعدم الذهاب.

تقرئي ثم تقذفي الكتاب وترددين ذاهبة وراجعة... ثم تعودين إلى الكتاب.. وتقذفيه وهكذا لا يستقر بك حال إلى أن تنجزيه، فإذا أنجزته لا تنامين ليلك كله، تبغين شيئاً لكنك

لا تستطيعينه وتظل خطواتك تتردد في أذني كطرق سجين على أرض يابسة .

أبعدتك لكي لا أزيد من عذابك، لكنك استهويت هذا العذاب، تقرئين وأنت عائمة في الأمواج والسحاب، تقرئين وأنت معلقة على نخلة تلهبها ضربات موجعة من الحر، تقرئين وأنت تستمعين إلى دروس المعلمة فإذا عنفتك خرجت ولا تعودين إلا وأنت محمومة بالقلق. . . رأيتك مرة تضربين رأسك في الجدار. . سقط قلبي بين رجليّ، هل تودين أن تقتلي نفسك؟ قلت لي: إن فراغاً في داخلك تودين أن يخرج. . . قلت لك ساعتها: إن السعادة هي دواؤك. ابحثي عنها.

هل رغبت أخيراً في السعادة وعرفتها. أنا عندما عرفتك عليها رفضتها. . حاولت أن أستهويك كفتاة وأضرب على وتر المرأة فيك، أغريتك بالملابس المنسقة والأحذية الأنيقة والشرائط الحريرية ومساحيق الوجه والعين، كنت تطاوعين وتربضين أمامي وجسدك يرتجف من أقصى أعماقه، وكنت أدرك أنك ستهبّين في وجهي في كل ان كنارٍ عاتية مدمرة ستأكل نفسها وما حولها. . . .

أتمالك نفسي وأنهي تنسيقك. . . فإذا أنجزت مهمتي أراك مكبلة مخنوقة من طيب مشاعرها، لاهثة الروح كأنك على وشك هاوية لا قرار فيها. . . ولن أنسى ما فعلته بي عندما بلغ عندك السيل الزبى. . . لقد طفح كيلك وكنت أتوقع هذا. . عريتني في ذلك الحفل، وتحلقت الناس المدعوة حولك بدل

أن تتحلق حول العروس وعريسها ـ لأول مرة آخذك عرس ـ عندما رميت حذاءك الجميل في وجه العروس وأدميتها ونزعت شرائط شعرك ليتخبط فيها العريس وتخلصت من فستانك الثقيل الضيق.. أخذتك في عباءتي وأنا أتصبب عرقاً من الحياء الأحمر الذي واجهته، حلفت بيني وبين نفسي أن لا أخرجك وأتركك في زينتك التي تبغين.. وأنا على ثقة ما هي زينتك وأنت اللطيفة التي لا تبارى تلبسين ألوانك المشبعة بناريتها ومائيتها وتطلقين شعرك على عنانه وعينيك تضفى ظلالهما على توترك.

فكرت أن لا أخسر جولتي في إيجاد السعادة لك... قلت في دخيلتي لا شك أنها فاقدة لمشروعها الحياتي: أن تكون زوجة، أم. انتهزت فرصة أن طرق الخطاب الباب، يطلبون ودك... أخبرتك أثناءها ما هي الحياة المشرقة الأثيرة لكل شابة مقبلة على الحياة... سردت لك المتع الجميلة والاكتمال الحلو عندما يلتقي إثنان، رجل وامرأة. وكانت عيناك تشعان بسيل منهمر من الحلم الهادىء الذي رأيته لأول مرة يداخلك كما تداخل نثارة من الضوء شجر قابع في ظلمته الذاتية... جمعتك بالراغبين في وصلك وحبك واختيارك واحداً واحداً... آه كنت تخرجين عنهم ودوائر تحيط عينيك الجميلتين منبئة بخيبات. وكم أسعدتني عندما أشرت على أحدهم أنه ينال استحسانك. طرت فرحاً وأمسكت قلبي أن ينفجر من الارتياح القابض أعلنت فرحة للجميع وأجريت استعداداً خيالياً لتزويجك. نثرت الزينات ومددت موائد فاخرة

للمدعوين ومررت بك عليهم ملاكاً غادر مملكته الملكوتية، عابراً الأنظار بلفتاته الغريبة المتوجسة وفتحت قلب الحقائب المليئة بما التمع وغلى ثمنه من الحلي والملابس. . . يا قلبي كم كنت فرحة فرحاً كاد أن يسقطني جثة هامدة.

في ليلة العرس ألبستك ورداً أبيض كان يعاني التصاقاً بجاذبيتك التي تنازع الذاكرة الغائبة، وقد مددت شعرك مسترخياً تحت نفوذ عاصفته التي لا تستكين. . . كان يرحل في لفتاتك الخجولة المستعجلة إلى لا مكان. . . . وضممت في يديك المتوترتين باقة من الفرح المنفلت برائحته التي تشبه رائحة جرح ينز ماء.

أطلقتك بين المدعوين وأنا أرقب بفضولي الخبيث صيحات الاندهاش. . . وعندما جاء عريسك أقعدتك إليه وهمست في أذنيك أن تبادليه كلمات تضفي على وجهه ارتياحاً عرسياً يتماشى مع زهو الاحتفال ويلامس فتنته. . وأشرت إليك أن المدعوين يريدون ذلك لتطمئن قلوبهم بالالتقاء الحلو. وقبلتها وقبلته. ابتعدت إلى أقصى زاوية في المسرح العرسي. رأيت من البعد البعيد مسرحية يمثلها ممثلون تحركهم كوميديا الطعام والملابس المزركشة واللغط الغامض حول الحياة. . . مسرحية يتسق أناسها على سعادة الحديث عن ابنتي. . . وعندما قربت منظار لهفتي رأيت ابنتي، مذهولة، صامتة، محتجبة الملامح، عارية وسط حشد صاخب يعزف على الأطباق المكسورة برنين حاد يمزق لوعة الفرح. رأيتها معلقة

في قوائم المسرح، كانت تنصهر رويداً رويداً وتغيب في حفرتها الخجولة. . . . أدركت ما شعورها. أدركته وأنا بعيدة لكنني غالبت كل شيء من أجل أن يمر الأمر بسلام. وجاءتني في الصباح مكشوفة متألمة.

ـ لماذا سجنتني؟.

ـ أردت سعادتك.

ـ لا أطيقها.

حسمت كل شيء وعادت تتلبسها كآبة سوداء، عواصفها الجوانية هدأت هدوءاً يفجر النفس بسياط عمياء من الغياب. غابت بسكونها الذي يشبه معراجاً نحو موسيقى النار. زايلتها عفاريتها الملتاعة للخفقان لتتلبسها روح صامتة ساكنة غامضة. . . وجاءتني يحوطها حزنها الاعتذاري:

«لم أنا هكذا. . ؟»

ثم استدركت استدراكاً متعجلاً متكلفاً. . سأعود إلى السعادة التي ابتغيتها لي. نعم سأؤلف لك سيمفونية من الأطفال. سأتزين كما تشائين. . . . سأ. . . . سأ. . . و. . . . ووو . . . .

أحضرت مرآتها ومساحيقها وبدأت يا عيوني تصبغين نفسك بالألوان، تضعين الأحمر مكان الأزرق وتقسمين وجهك قطعاً ومساحات وطرقاً ونوافذ وترشينها بالأصباغ والبودرة اللطيفة وتزينين شعرك بهديل طويل آت من قفار ودروب لم

ترصدها المرآة، شاورتني في ماذا تلبسين وكان متناسقاً أشد التناسق مع مزاج الفسحات وجربت أحذية كانت تشبهه في ايقاعاتها طحن الخشب في الماء الهائج.. كنت تميلين إليّ قليلاً وكثيراً إلى المرآة وفاح الانتشاء في قلبي فقد صدقت تغيرك، أخذتك من يدك وقلت: هيا إلى بيتك الطبيعي. طاوعتني باسترخاء لم ألمسه منك طيلة حياتي، انهلت عليك أقبل طاعتك وكدت أفقد صوابي:

فلم أكن ممسكة إلاّ بالمرآة المزينة.

يارب.

نظرت إليّ بغياب طويل يعصف به ألم مشتت.

وبكل هدوء تناولت المرآة وحطمتها شظايا معفرة «بالمكياج في وجهي الحائر. تركتها بشأنها، قلت في نفسي، لقد أصبحت امرأة ناضجة وربما تعليماتي الصارمة لها أفقدتها توازنها، لذلك لأبعد نفسي عنها فلربما تراجع كل شيء وتعيد حساباتها وتؤوب إلى عقلها الراشد الذي سيضع محاذيره أمامها فتعود للمعتاد وتريح قلقي عليها من شذوذها. ولم أعد أسأل عنها.

لاحظتها هدأت كثيراً ولم تعد تغادر غرفتها. قلت هذه بداية التعقل وصليت من أجلها. خفت حركتها الليلية، قلت أدركت الطبيعي فالنوم سيوقظ فيها الكوامن التي ترفضها كما اختفت رغباتها الغريبة، فلم تعد تطلب مني شد الرحال إلى

البراري الفسيحة لترى انبثاق الشمس من أعشاش البحار الضبابية ولتعد على أصابعها امتداد اللانهاية ولتستمتع بلغة القلب وهي تندلق في التموج الحريري (لغتها تحيّرني). قلت رجعت إلى جادة الصواب.

بنيت أحلامي حول تغيرها يوماً بعد يوم وأنا أتابع رقة طبعها وانحسار قلقها الذي حل محله صفاء لا يقارب، كانت تأتي إليّ تعلوها مسحة من الارتياح اللطيف كنسائم تداعب طرفاً مقزح بالعصافير.

عدت أحادثها حول ما يجب أن يكون وما لا يجب، ولم أكن ألمس امتعاضاً منها كانت تستمع إليّ كنفس صافية أنفرج الكون في مواجهتها، وكنت أرى من طرف خفي أن بعض كلماتي تجد صداها الطيب عندها.. تقابلني بنظرة ممتنة دون أن تتفوه بأي كلمة ثم تنسرب كعصفور إلى مكانها.

ولم أكن ألاحقها إلى غرفتها. تركتها وشأنها هناك في مملكتها العقلية التي تختلي فيها إلى نفسها وتواجهها فيما «يجب» أن تتصرف فيه. بقيت على حالي هذا أنتظرها أياماً وشهورا حيث لم يفارقها سكونها الذي يذكرني بعبد علمَ الأسرار وخفقت روحه إلى السموات العليا ولم يبق إلا جسده يتحرك مع الموجودات. خفت و.... توجست من الاختلاء هذا وساورتني الشكوك بأنها على وشك أن تفارق الدنيا ولا يبقى إلا خيالها.. وإلا لماذا هذه المسكينة المفجعة.. وإلا لماذا هذا الاطمئنان الذي كان جسدها وعقلها يرفضه ويفصح عن نقيضه قبلاً.

هجمت على غرفتها ويا لدهشتي مما رأيت.

لم أر غرفة.. كانت عوالم لم تشهدها نفسي وكانت هي منحنية على رقعة عريضة ممتدة لم أستطع حساب حجمها، كلما اقتربت منها ترامى امتدادها وعلا قربها. لم يكن جبلاً. لم تكن مساحة أرض. لم تكن جنة. لم يكن خيال امرأة أو بارقة رجل. لم تكن طيوراً شاقة كبد الخفقان. لم تكن مغارة أو صحراء مزهوة برشاقة الضوء.. كل هؤلاء أو ليسوا... لم أحدد شيئاً لكنني شعرت بارتياح غريب وكانت هي مشغولة بعملها ودورانها في الصقل والتدريب. لكن ما الذي ترتبه وما الذي تحطمه. وجاءتني في الصباح مكشوفة متألمة.

غبت طويلاً مما رأيت، صحوت على صوتها يقترب مني ويداها مضمومتان بشيء. أخرجته لي وقالت: «سامحيني يا أمي لقد شوهت مكانك الأنيق لكنني فعلته دون ضجة، بهدوء متناه، اقتطعت هذا الحجر من الجدار حاولت أن أنسقه باعتدال وأضع ملامحه المتعالية وأهيىء سبيل عنفوانه.. أليس جميلاً..؟

«لكن يا أمي هذا التمثال يأبى إلاّ الإنحناء المعذب... حاولت أن أنسقه ولم أستطع.. أنه فعلاً معذب، صنعت المستحيل ليعتدل لكن كل شيء يأبى سعادته، أترين ذلك النهر؟. بنيته يجري من تحت قدميه... لكنه طار سحاباً وغاب في الجحيم.. وهذه الطيور صنعتها لكي تحرض الماء أن يسقط من السحاب للغائب، لكن الطيور اختارت الجبل

لتبني أعشاشها، صنعت صحراء لتغني للنهر والسحاب والطيور ليعزفوا على وتر الماء لكي يأتي إليه... لكن الماء رفض الضوء، كسرت أعواد الضوء وأشعلتها بخوراً لتأتي امرأة الماء لتلتصق بقلبه العطشان، لكنها غفلت عنه.. حاولت يا أمي وما زلت... ليصارع الماء.. ليقوم..»

ـ «ما قصة الماء هذه؟.»

تركتها لتماثيلها وخيالاتها وانشغالاتها.

إنها لا تريحني أبداً. لا تبغي سعادتي. يا لها من شقية.

خرجت ذات يوم من غرفتها شعثة متهالكة. استطلعت الخبر، وجدتها حطمت كل ما بنت واستوت على الأشلاء متألمة يعصرها القلق.

قالت وهي تضرب برأسها كل التحطيم:

«الفراغ ما زال يملأ رأسي... لماذا لا أموت... لماذا لا أموت؟.»

ـ«لماذا لا تموت!.. آه لا شك أنها ستحاول قتل نفسها لا شك..»

سألت التلميذات الموج: هل وجدت السعادة؟

ضربت الموجة رأسها بالجدار قالت:

«إن رأسي ما زال يمتلىء بالفراغ... الفراغ... الفراغ..»

قالت الأم: لم لا أقتلها حتى تجد السعادة؟

قالت الموجة: إنني وحيدة في الموت... رأسي ما زال يمتلىء بالفراغ.. الفراغ.

جنهنار...

* بحر متلاطم

في صباح بحري أزرق أبيض، حلقت فيه النوارس بتجمعات كبيرة، حلقات ودوائر وحلقات بعد غيم غاب، قامت فاطمة بنت الحمادي وهي أشبه ما تكون بمركب كبير يعبر الماء المنجرف بتؤدة لتفتح بابها لجاراتها القادمات واللواتي يجلسن إليها منذ خمس وثلاثين سنة.

فاطمة الحمادي تحرص أيما حرص على أن تجهز القهوة اللاذعة بالهيل والقرنفل والزعفران كما تحضر الحلوى والخبز السكري والتمر والزبدة، وأمتع الجلسات تكون في الخارج صيفاً وشتاء أمام الجمر يعبق برائحة البخور الأخاذة التي تداعب ما وراء العواطف... وهنا يحلو الحديث لعفراء المعفرة بدم الصحراء التي عيناها تدوران دوراناً قاسياً مثل التفاف الأفعى على فريسة الضوء...

«عفراء» نهشت الانتعاش الصباحي في جلسة الحمادي وهي تقرص ميثا بنت علي «في موضع الأحمر: «ما الأخبار...؟»

«أحلى من ليالي العروسين»

اهتز صدر عفراء المسطح.. مسحت على طيف ناصر بن بخيت الذي تأخر عنها في الليلة الماضية «لا شك أن زوجاته أمسكنه..» أعلنت «لقد زرت نساءه البارحة... لكن لماذا لم يأت؟...»

فاطمة الحمادي نظرت إلى «عفراء» بابتسامة خاطفة ثم غابت..

فاطمة الحمادي تكون بين النساء لامعة بزينتها، واضعة الياسمين على الشعر والحناء على الأطراف البضة الممتلئة وغائمة في حرقة العطر وضباب البخور... وتختار فاطمة الحمادي ثوبها متناسقاً ببهاء مع السروال الأحمر مع الأصفر، الأزرق الزاعف مع الأخضر الصارخ.

سعيدة بنت مفرح قالت لفاطمة الحمادي «خطبت موزة بنت حسن لـ عبد الله بن جاسم وعندما رآها بالباب فسخ الخطبة...»

ـ «ما السبب؟».

ـ قال لي: إنها بقرة وهو يريد ظبية، خولة بنت راشد هربت منذ يومين من المدرسة مع الفراش ولم تعد إلى الآن... خلفان بن عبيد ذهب إلى الهند ليتزوج لكنه مات حال وصوله إلى الفندق...»

قالت شرينة بنت سيف: «ألا تصلح خولة لعبد الله؟.»

قالت سعيدة بنت مفرح: «يهديك الله يا شرينة. . لكن لم تخبرينا من أين حصلت على الولد الذي تربينه. .»

شرينة لم تلتفت إلى ملاحظة سعيدة الأخيرة. قامت وهي تكشف مفاتنها الهابطة مقاربة الأكل الذي تدير توزيعه ببخل واسع لا نظير له. . أكلت ثم وجهت لسانها السليط إلى «رفيعة بنت حمد» واصفة بلغمها الذي تنزفه من صدرها العليل. . و «سليمة» التي لها رائحة قطيع. . و «آمنة بنت مهرة» التي تحلم بطيف زوج. . «لا تأكلي الحلوى القارص، أنه يجن بالعزباوات».

قالت عفراء لآمنة: «لا تخجلي سأزوجك بنفسي وسأخبرك عنه قبل أن يلقاك في الليل. .»

ابتسمت «آمنة» التي بلغت الخامسة والثلاثين، الجميلة، التي لم تعلق في شبكة رجل: «اليوم اعترضني عبيد بن سالم. . شعرت به يخنقني بنظراته. . كلهم هكذا ولا أحد يطرق بابي. .»

قالت علياء بنت سعيد: «كله حظ ونصيب. . الليلة الفائتة أيقظني أبيات من الشعر أطلقتها، بعدها قضيت الليل في قراءة القرآن إلى الصباح. .»

علياء في الأربعينات عافت زوجها بعد شهور من الزواج ولم تتزوج بعده.

قالت تفاحة بنت خميس: «أشعري يا علياء»

قالت عفراء: «تريدين أن ترقصي، بك شياطين أجدادك السود. .»

قالت علياء: قصيدتها مما جعل عيني كل جالسة تسيل بالدموع وانقبضت أفئدتهن وانفرجت وتوهجت. . وومض وجه فاطمة الحمادي كما رقصت تفاحة المتزوجة من خادمها الهندي حتى فاحت رائحة جسدها العنبري.

فاطمة الحمادي، لو سألت أي امرأة حضرت جلساتها، سوف لن تتذكر أنها شاركت في الحديث ولو بكلمة واحدة، وستقفز إلى الأذهان صورتها وهي حزينة ومصقولة الوجه تبتسم مع موجة الحديث وتغيب في الذكر الألهي والتسبيح والتهليل والاستشهاد. فاطمة حجت إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، عشرين مرة، بفضل أزواجها الستة.

قالت شرينة بنت سيف: «الله يبارك في عمرك ويهبك الصحة لتحجي هذه السنة، ليس مثل حج شمسة بنت المذن التي تذهب للحج لكي تتفسح مع الجماعة الله يخسف وجهها الذي يشبه حصان جبل. . . نار جهنم تنتظرها. .»

قالت شمسة: «سنرى من يدخل الجنة. .»

قالت عفراء: باعتقادي أن النار تفضل شرينة. .»

أمرت عائشة بنت مبارك خادمتها لتصب لها القهوة، فهي لا تشارك النساء المجتمعات أكلهن الذي تعده فاطمة الحمادي. . . والتي تتوهم القذارة في كل وقت، لذلك لا

تظهر على مسرح المحادثات إلاّ قليلاً وتبقى معظم الوقت تغسل يديها أو تبدل ملابسها.

نظرت ميثا بنت علي إلى عائشة بنظرة محتقرة وركزت عينيها على صدرها المرفوع بتكلف إلى رقبتها «تملكين هذين الرمحين وزوجك كل يوم في بلد؟...»

ضحكت مريم المحار حتى بالت في سروالها. مريم تحب فاطمة الحمادي لذلك تحاذيها طول الوقت وتبقى أسيرة رائحتها كما تلازمها حالة فاطمة الحمادي الصامتة.

قالت صالحة بنت جوهر لمريم المحار: «سأنام عندكم الليلة....».

قالت مريم: «بشرط أن تطبخي، زوجي يقول: إن طبخي رائحته مثل عطر العجوز..»

صالحة تشبه ديكاً أطلقه أهله ليكون ملكاً لدجاجات الحي، هي لا تملك بيتاً سوى صرة ملابسها، امرأة زوجها مريض تنام صالحة معها ومع زوجها. امرأة ولدت حديثاً... تسكن معها صالحة أخرى مسافر زوجها، تقوم صالحة بأعباء البيت في غيابه...

فاطمة حمادي لو خطرت على بال النساء، سيتذكرن وجهها وهو ينفعل على أصواتهن المتضاربة وتبدو أشد المشاهد بروزاً ضحكها الصامت إلى أن تدمع عيناها المكحلتان وتستلقي على ظهرها من الضحك وتبدو أشبه «بكليثم» المسكونة بالجني خميس.

في الجلسة الأخيرة ضربت عائشة بنت مبارك شرينة بنت سيف لأنها شربت فنجانها وتخاصمت رفيعة مع صالحة فتقيأت رفيعة على زينة بنت محمد وتخضب خاتمها المرصع بالأحجار الكريمة بالقيء. بكت زينة «اشتراه لي عيسى بمبلغ كذا. . . .».

قالت تفاحة: «مبلغ كذا. . . كذا. . . أنت كما هو واضح لا ترغبين بالحمل وإلا عيسى. . . .»

«عيسى يقول: المرأة التي تحمل لا تصلح زوجة. .»

قالت آمنة بنت مهرة «أتمنى طفلاً أرضعه يا. . . أشعر بالقشعرية. . . قشعريرة. . . قشعريرة. . . . فاطمة الحمادي تزوجت ستة رجال، أربعة منهم ماتوا والآخران طلقاها. وهما قد وصلا مرحلة وهن شديد، ولم يعرف أحد سر العلاقة بينها وبين أزواجها إلا أنهم جميعاً يشتركون في بقائهم معها لمدة أربع سنوات، بعدها يعرف أن فاطمة تبقى بلا زوج إلى أن تجلب سعيدة بنت مفرح زوجاً لها وهذه تكون راضية مرضية. . كما أن أياً من الأزواج لم يحدث قط أن شكا من فاطمة الحمادي.

أكثر واحدة تحب فاطمة الحمادي وتظهر بالمقابل محبة فاطمة لها هي «طيبة بنت مصبح»، وطيبة هذه لها عيون تخاف منها كل النساء لأنها تنظر إليهن بلا رؤية حتى تدمع عيونهن بحرقة. تقول النساء: إن طيبة ضربها أبوها إلى أن توزم عقلها. بينما كانت فاطمة مستغرقة في التسبيح والبكاء. . قالت

طيبة لعفراء: «وجهك اليوم يشبه وجه عنزة.. أبي اليوم ضرب العنزة التي أكلت الزرع ماتت تت ت تـ..».

قالت عفراء: «أبوك ضربها لأنها عنزه حقاً..»

قالت عائشة بنت مفتاح: «عبيد ولد الشغاب طلق زوجته وأخذ الأولاد هذا الرجل لا تستمر معه المرأة.. تزوج سبع عشرة مرة.. المرأة عنده مثل السمكة التي تتعفن في البطن..»

قالت عفراء لآمنة: «ما رأيك في عبيد.. هل تقبلينه زوجاً؟».

قالت نوره السمينة: «سنزوجه طيبة. بعدها لن تصرخ بالليل أبداً..» نظرت فاطمة بابتسامة هادئة واستغرقت في التسبيح «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر...».

﴿قل أعوذ برب الناس. ملك الناس. إله الناس. من شر الوسواس الخناس. الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾.

«صائمة أنت اليوم يا فاطمة؟».

أجابت فاطمة هازة رأسها بإيجاب لمريم المحار.

قالت علياء بنت سعيد لشرينة: «سينتفخ بطنك من الحلوى».

ضحكت رفيعة «ستنامين في الحمام الليلة ها هي . .» .

رشت شرينة رفيعة بالقهوة الحارة وقامت لتضربها إلاّ أن رفيعة احتمت بفاطمة الحمادي بينما سقطت شرينة التي تشبه الناقة على علياء بنت سعيد .

في نهاية الجلسة قالت سعيدة بنت مفرح لفاطمة الحمادي : «جاءني خليفة بن بشر يريد امرأة لنفسه . . . أشرت عليه بك . . .» .

هزت فاطمة رأسها بإيجاب . قالت شرينة : «أبشري بالحج هذه السنة يا فاطمة . .» .

وانفض الجمع . عفراء ذهبت إلى بيت ناصر بن يخيت لتسأل عنه ، وترافقت شرينة بنت سيف مع علياء بنت سعيد لتتغديا معاً ، مريم المحار وصالحة بنت جوهر ذهبتا إلى السوق ، آمنة بنت مهرة ذهبت لتوصل طيبة إلى بيتهم ، وبقيت رفيعة وسعيدة بنت مفرح بعض الوقت مع فاطمة الحمادي تتحدثان حول زواجها . . . كلهن غادرن .

* نار

أذن الفجر . قامت فاطمة الحمادي أشبه بمركب يتهاوى ليرسو ، تحممت ثم صلت الفجر وقرأت سورة ياسين من المصحف الشريف ، بعدها خلعت ملابس الصلاة لتدهن العود وبعض العطور النفاذة وتبخرت بالبخور القوي العبق حتى

انتشرت الرائحة إلى البيوتات المجاورة ومشطت شعرها الطويل الأسمر، ولبست ثوباً أحمر مطرزاً بالخيوط الذهبية، ووضعت ملاءة شفافة حريرية على رأسها، كما دهنت يديها وقدميها بالياسمين، وكحلت عينيها متهيئة للزفاف إلى خليفة بن بشر في الضحى.

اتجهت فاطمة الحمادي إلى المطبخ لتعد القهوة وهي تحت طائلة غمام العطر والزينة، وبينما هي أمام موقد النار تعد القهوة لم تشعر بالنار وهي تسري إلى ثوبها الذي أشعلته في الحال وأشعلت معه السروال «النايلون» الذي ذاب على جزئها السفلي والتصق به، ثم التهمت النار شعرها، ولم تتحرك فاطمة الحمادي من مكانها وسال الدهن من جسدها المحترق، وذابت عيناها واختلطت شفتاها مع بعضهما بعد أن رددت لا إله إلاّ الله ، محمداً رسول الله . توقف قلبها وأتت النار عليها فلم تبق منها إلاّ العظام الرماد التي خالطتها رائحة البخور .

في الصباح الأبيض الصدفي الذي أكلت فيه النار فاطمة الحمادي المتزينة لم تطرق أي امرأة باب فاطمة الحمادي، فقد انشغلت كل واحدة على غير العادة: شرينة كانت مريضة بالقيء والإسهال، ورفيعة ذهبت إلى أختها، مريم المحار وصالحة ذهبتا لتزورا فاطمة التي ولدت، آمنة بنت مهرة خطبت الليلة الماضية، أما طيبة فقد ضربها أبوها فلم تقم من فراشها، أما عائشة بنت مبارك فقد فضلت البقاء في البيت لأن قايدة مريضة، وعلياء، لأنها لم تقم للصلاة عند الفجر، اغتمت

وبقيت نائمة، عفراء انشغلت بتوليد بقرتها، كليثم أصابها الصرع فمرضت، وميثا فقدت رغبتها في الذهاب إلى بيت فاطمة الحمادي. ولم تزر أي واحدة فاطمة الحمادي المحترقة في الصباح الأبيض.

جنهنار * جنة نار

الفهرس

عشبة



دار الكلمة للنشر
تلفون 803740 ـ ص ـ ب 5288 / 13 ـ بيروت لبنان